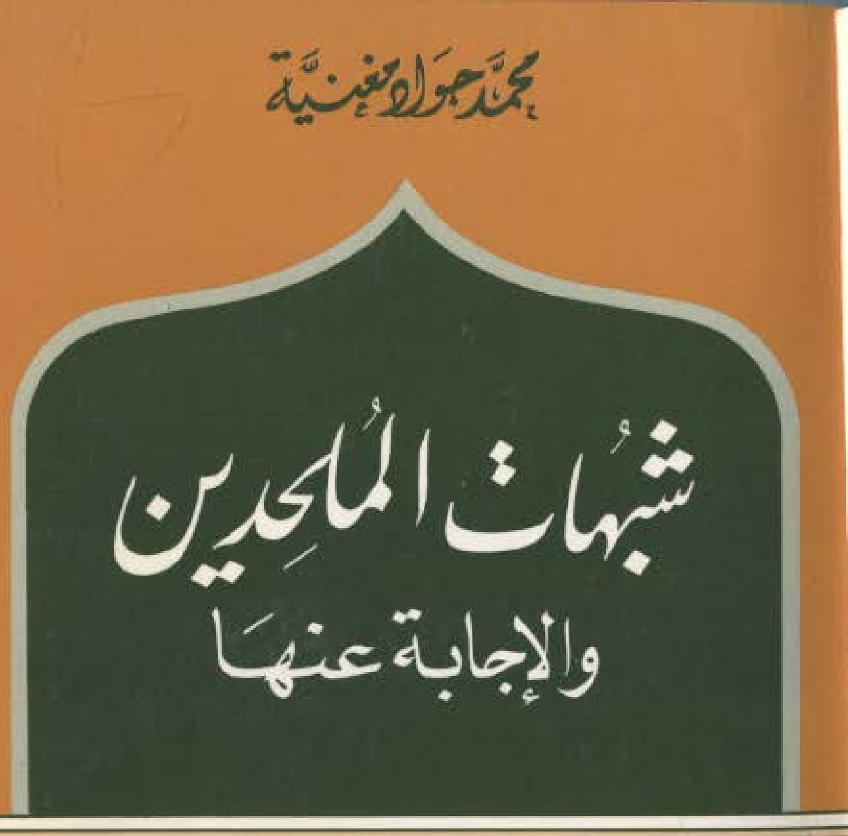

محمد جواد مغنية
شُبهات المُلحِدين
والإجابة عنها


دار الجواد
دار ومكتبة الهلال

محمد جواد مغنية

شبهات الملحدين
والإجابة عنها

دار الجواد
دار ومكتبة الهلال

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤-٥٨١٣
تلفون : ٣٠٠٧٤٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد وآله الاكرمين

مع أخ كريم :

قال لي أخ فاضل وكريم من السادة الأشراف آل بحر العلوم : نحن وانت في سباق مع الفارق في الميدان .. انت تكتب ونحن نقرأ .. وكان فرحي بقراءته أشد من غبطتي بما يدره عليّ حق التأليف ، لأنه الى زوال قلّ أو كثر ، ولكن هاج بي الطمع في العقبى .

وانا بدوري سلخت أعواماً مديدة في القراءة .. أنقب عن شوارد الأفكار ونوادرها ، أُدرّب بها ذهني على النمو والتفكير ، وأرمم ما فيه من ثغرات وفجوات قبل أن أمسك بالقلم .. وحتّى الآن ، لأن ترميم البيت أولاً ، ثم السكنى .. واذا اهتديت الى حكمة استضيء بنورها أصابني ما يشبه مس الكهرباء ، وأتذكر قول من قال حين يطالع ويذاكر : « أين السلاطين مما نحن فيه !.. أما لو فطنـوا لنا لقاتلونا عليه

بالسيوف »[1] . وقال غيره : هذي هي اللذة من غير إثم .

يقرأ ويصفق :

ومن جملة ما قرأت في هذا الباب : أن رجلاً كان يقرأ ، وهو مستلق في فراشه ، وفجأة وبلا شعور قفز واخذ يهتف ويصفق طرباً !.. وهكذا تفعل البذرة الصالحة في الأرض الطيبة، او كما قال الامام امير المؤمنين (ع) حين صعق همام عند سماعه الخطبة الشهيرة الخطيرة : « أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها » . واذن الفكرة الانسانية ليست بشيء اذا لم تصادف قلباً راغباً ومزاجاً قارئاً .. وقال شاعر من من الصين : « يحس المفكر الذي تمضي عليه ثلاثة ايام دون أن يقرأ شيئاً ان حديثه قد فقد نكهته ، كما يرى أن وجهه أصبح كريهاً اذا نظر اليه في المرآة » .. وليس من شك أن الوجه القبيح يستره العلم وسحر الحديث ، والوجه الجميل تشوهه الجهالة والحماقة .. وشاع في اوساط النجف عن عالم ذي شأن أنه قال : « اذا تركت المطالعة والمذاكرة بضعة ايام شعرت بأني عدت الى حيث ابتدأت » .

الأخطاء المطبعية :

لاحظت اكثر من مرة أن صاحب المزاج القاريء يتجاهل الأخطاء المطبعية، ويتغافل عن رداءة الطبع والإخراج ، لأنه

(١) قرأت هذ القول منسوباً إلى أبي حنيفة في الحكمة الخالدة لابن مسكويه .

منصرف بكله ومن أعماقه الى المضمون والمحتوى لا الى الشكل والصورة ، كما هو الشأن فيمن يبحث عن العبقات لا عن اللعنات .. وصدق الله العلي العظيم : « قل كل يعمل على شاكلته وربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلا — ٨٤ الاسراء » . وقال حكيم خبير : « من اشتغل بتفقد اللحن نسي الحجة » .

أعلام وعمائم :

ورحم الله علماءنا القدامى ، عاشوا — على فقرهم وحاجتهم — مع كتب الورق الأصفر المطبوع بالحجر بلا فواصل ودلائل ورؤوس اسطر وما اشبه ، واقبلوا عليها بحب وتقدير ، ودرسوها بفهم وعمق ، وناقشوها بوعي وروية .. يسهرون معها حتى الصباح على مصباح شاحب تحوم عليه وعليهم البعوض اللاسعة ، وتدب من حولهم العقارب اللادغة ، وما زادهم ذلك الا ظمأً للعلم ، ونشاطاً في طلبه حتى بلغوا منه قمة القمم ، وكان منهم صاحب الكفاية والرسائل ، والمستمسك والجواهر ، ومن قبلهم الشيخان : المفيد والطوسي ، والشهيدان : الجزيني والجبعي ، والمحققان : الحلي والعاملي ، والعلامتان : الحلي والمجلسي .. الى ما لا يبلغه عد وحصر .

ولا أدري : هل البؤس يحث على الحركة ، والحاجة على البحث والتفكير؟ وايآ كان السبب فان العديد من العلماء والفلاسفة والأدباء — قد حطموا الحواجز على صخرة الصبر ،

وانتصروا على الآلام ، وابدعوا في كل ميدان.. ورأيت ، وانا طالب في النجف، اساتذة وتلاميذ قد عضهم الجوع ، وانهكتهم الشدة ، وبالرغم من هذا كانوا عند النقاش كالسيل الدافق .. ثم عشت ورأيت نوعاً من الطلاب لايهتم واحدهم بدرس وتحصيل ، وشغله الشاغل – وهو طالب – أن يبني داراً فارهة بالأدوات والمكيفات .. والسجاد والحجرات واذا فتح كتاباً شعر بالاختناق !.. لا يا شيخ .. اما العلم وحده لا شريك له ، وانت حبيس في طلبه ، واما الدنيا وكفى .

شطحات فقهية :

حين انتهيت من تأليف الاسلام بنظرة عصرية – شرعت بكتاب شطحات فقهية، وسوّدت منه صفحات ، وعزمت على المضي فيه حتّى النهاية، كما هو شأني في سائر ما كتبت ونشرت .. ودون أية سابقة اصبحت ذات يوم ، وقد تملكني الخوف والهلع من هذه الفلتات التي تبرز المساويء ، وتخفي المحاسن ، وقلت في نفسي : يا سبحان الله!.. وأينا المعصوم ؟ وكيف أجمع بين هذا وكتاب «مع علماء النجف » ؟.. وهل انا مبرأ مما أرمي به سواي ؟. واذن فأنا مغرور ، او مخدوع من نفسي حين آثرت هذه الكبوات، وان كنت فيها من الصادقين .

ورغم ذلك استخرت الله بكتابه واذا بآية غاضبة لاهبة تهددني بالاحباط والانحطاط ... يا ساتر يا عظيم .. ما هذا

الصاروخ الجهنمي بعد العمل الطويل ، والجهد الجهيد ؟. فعدلت عن القصد ، وشكرت الله على لطفه وهدايته ، وسألته خير القضاء في العاجلة والآجلة « وان يردك بخير فلا راد لفضله ١٠٧ يونس » .

وغريبة الغرائب أن كبيراً من علماء النجف كان قد اطلع على بضع مسائل من الشطحات ، فقال لي بهدوء الواثق ، وهو يقرأها : « ستعدل عنها لامحالة » فتعجبت وقلت في نفسي : ماذا أراد بهذا ؟ ومن اين جاءه العلم ؟ وانا محب لعملي ، وأعتزم الجد فيه حتّى الحرف الأخير ، كما سبقت الاشارة .

هذا الكتاب :

تركت الشطحات الى هذا الكتاب، وكان اسمه في بادىء الأمر « الدين والفطرة » ثم تبين لي أن اكثر فصوله او الكثير منها تلتقي عند الرد على الملحدين ، والتصدي لأقوالهم ونقاشها بمنطق هادىء وصارم، فتركت الاسم الأول الى اسم « شبهات الملحدين والاجابة عنها » .. ومهما يكن فليست العبرة بالاسم ، بل بما يقع عليه ، ولا بالحجم وكثرة الأوراق ، بل بالعلم وعدد القراء .

وتسأل : لقد كتبت كثيراً في هذا الموضوع ، وافردت لكل أصل من اصول العقيدة كتاباً خاصاً به ، فهل في كتابك هذا من جديد ؟.

الجـــواب :

١ ــ ان شبهة الإلحاد تقوم عند اصحابها على العديد من الأدلة ، ناقشت بعضها من قبل، ثم لاحظت أنهم يركزون كثيراً على ان العلم الحديث ينافر الايمان بالله ويناقضه متشبثين بنتائج اثبتها علم الطبيعة ، وعلم الأحياء ، وعلم النفس ، كما يزعمون ، وهذا الكتاب يفند هذا الزعم والوهم بعد أن يعرض اقوال الزاعمين بأوضح بيان .

٢ ــ ان الملحدين لا يكفون عن التكرار والمعاودة « وان عدتم عدنـــا » .

٣ ــ لا بد لكل آمر بمعروف ، وداعٍ لأية فكرة ــ من التوكيد والتكرار ، لأنهما من اقوى العوامل وأجداها لتكوين الآراء وانتشارها .. ومن هنا كرر القرآن الكريم آيات التدليل والترغيب والتحذير بشتّى الأساليب ، ومن قبل قال المشركون لنبيهم : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ــ ٣٢ هود » .

ولا اعرف عصراً انتشر فيه الالحاد ، وكثرت وسائله وتنوعت كهذا العصر .. وعلينا ان نبذل كل جهد مخلص ، ونسلك كل طريق من شأنه أن يُقنع او يُفحم.. هذا هو الأهم والأساس في هذا الزمن العصيب الغريب .. اما الاحتفال بمولد النبي (ص) واهل بيته ، واحياء ذكرى ما كان وجرى فهو فرع عن الايمان بالله والتصديق بوجوده حيث لا نقش بلا عرش ، ولا عبادة بلا معبود .

ولكن الذين يمكرون في الخفاء يتجاهلون هذه الحقيقة ، ويحيدون عنها الى مجرد المظاهر والشعائر ، وألف ملحد وملحد يسخر منهم ومنها .. ولو كان الدين من همهم واهتمامهم لجاهدوا في هذا الميدان أولاً وقبل كل شيء ، لأنه اصل الاصـــول .

عرفت الله بفسخ العزائم :

كان المفروض في هذا الكتاب أن يصدر عن دار الشروق في اول الصيف من هذه السنة ١٩٧٤ حيث كنت قد وعدت به صاحبها الاستاذ محمد المعلم ، ولكن تبخر الوعد في يوم وليلة ، لأن السيد موسى العَلوي ــ من وجوه البحرين ــ أراد أن يقدم لنفسه ، فرغب اليّ أن تكون الطبعة الاولى على نفقته وحده بما فيها حق التأليف .

وكان السيد العَلوي قد قرأ الفصل الاول من الكتاب في مجلة الاسبوع العربي ١٨/ ٢/ ١٩٧٤ وهو الذي دفع به الى هذه الأريحية فآثرته على أن تُوزع نسخ هذه الطبعة بالمجان ، وتركت الوعد الى خير منه للكاتب والباذل لوجه الله ومرضاته .. وهذا عذري للاستاذ المعلم صاحب دار الشروق ، وانا على يقين أنه يعذر ويسمح ، لأنه كريم .

وهو سبحانه من وراء القصد ، والمسئول أن يوفقنا جميعاً لما هو خير وأبقى ، ويستعملنا بما هو أزكى وأرضى . والصلاة على محمد وآله الابرار .

سارتر وفكرة الإلحاد

وجّه بعض المؤمنين سؤالاً لعالم من اساتذة الحوزة العلمية وكبارها في النجف الاشرف، يقول: ما رأيكم في دعوة الفيلسوف الفرنسي والاديب الشهير «سارتر» التي تحدى بها المؤمنين في شرق الارض وغربها بأن يختاروا منهم قديراً يرسلونه اليه للجدال في الله، وعليه نفقاته في ذهابه وايابه.. مع العلم بأن المؤمنين قد تجاهلوا هذا التحدي الصارخ وسكتوا عنه!.. فهل يجوز السكوت في مثل هذه الحال؟.

واجاب المسئول الكبير: لو ان المؤمنين دعوا «سارتر» الى نقاش الحساب عن كفره والحاده، وتعهدوا بنفقاته ذهاباً واياباً، وتجاهل هو بدوره واحجم - فهل يعني هذا انه افحم واستسلم، وان الجاحدين من امثاله يتوبون، على فرض احجامه، ويؤوبون الى الرشد لا محالة؟. (انتهى السؤال والجواب).

وغير بعيد ان يكون هذا التحدي مفتعلاً على لسان سارتر.. لمجرد الاعلام والدعاية الى الالحاد، عسى ان يخدع به ساذج

ابله.. ولا انزه «سارتر» عن الكفر والالحاد، كيف؟ وهو الرائد الاول في هذا العصر للوجودية التي لا تتجاوب مع دين من الاديان السماوية، ولا تلتمس عذراً علمياً لمؤمن في ايمانه بالله.. ولكني استبعد عنه هذا الغرور والحمق الذي يسيء الى سمعته ومكانته!.. واية مصلحة لسارتر في تحدّيه شعور اهل الارض او جلهم، فيصرخ في وجوههم بوقاحة وصلافة: كلكم على خطأ وضلال، وانا وحدي على الحق المبين، وفيهم الادمغة التي تزخر بالعلم والعمق وتردله الصاع صاعين؟

هذا، الى ان فكرة الالحاد كانت منذ القديم ولم يبتدعها سارتر من موهبته وعبقريته.. فمن قبل ومن بعد ايضاً لاكها الجاهل والاحمق، ولا فضل لسارتر في طرحها الآن والدفاع عنها.. واذا كان لديه شيء جديد حول الالحاد لا يعرفه احد سواه، ويريد ان يعلنه على الناس - فلماذا يتحمل النفقات ويبذل الاموال ما دام قادراً في كل حين ان يعبر عن رأيه في كتبه أو مجلته او في أية صحيفة يختار، كما هو شأنه وديدنه في سائر الموضوعات؟.

وان اراد سارتر من دعوته وتضحيته بالمال ان يطلع على ادلة المؤمنين ويحيط بها علماً - فتلك حجتهم بين يديه ويدي كل طالب وراغب، يجدها في كتاب الله، واحاديث النبي واهل بيته وكلام الصحابة والتابعين، واقوال الفلاسفة والعلماء، وآثار اهل الفن والادب من ابناء هذا العصر وكل عصر، وفيهم من يملك ارقى ما بلغته الانسانية من معارف في كل ميدان حتى

في العلوم الطبيعية ، وادلتهم في غاية البساطة والوضوح .. فليناقشها سارتر بما احب .. ومرة ثانية لماذا تحمل النفقات وبذل الامـــوال؟.

وكفى بالله هادياً ونصيراً لعباده المؤمنين ، وحكماً بينهم وبين الجاحدين الذين تحداهم سبحانه بقوله : « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ــ ١١١ البقرة » . تحداهم جل وعلا بعد ان دعاهم الى الايمان ، وارشدهم الى البرهان ، وقال لهم فيما قال ، علت كلمته : هذا كتاب الوجود فتعقلوه ، وذا قرآني فتدبروه ، وذاك رسولي اليكم فانظروا في سيرته ورسالته بامعان لعلكم تهتدون .

وبعد ، فان فكرة الالحاد ليست بالمشكلة التي ترتفع الى مستوى النقاش الحاد والاسهاب في الجدال بين العـــارفين المنصفين ، لانها لا تقوم على اساس من الواقع ، ولا الشواهد على وجود الله عزيزة المنال وفوق العقول والافهام ، كيف وفي كل شيء له آية ؟ كما قال الشاعر الملهم .. وانما الالحاد عقدة نفسية لدى بعض المتفلسفين والمتحذلقين ، نشأت من كلمة الدين بالذات التي توحي بنوع من الفرضية القبلية ، كمـــا يتوهمون ، ففروا منها الى « موديل » الانكار والتحرر من كل قيد وقيمة !.. ويمثلهم جميعاً ما قاله واحد منهم : «من المستحيل ان يوجد نظام بمحض الاتفاق والصدفة ، بل لا بد انه وجد نتيجة لارادة مدبرة ، ولكن ذهني لم يكن على

استعداد لتقبل هذه الفكرة » . (كتاب الاسلام يتحدى لوحيد الدين خان) .

وعلى اية حال ، فان وجودية سارتر تعتبر كل فرد من الانسان قلعة في نفسها ، وتضع حريته فوق اي اعتبار آخر ، ويمتاز عن غيره من الكائنات بالاختيار ، وهو يؤكد ذاتـــه ووجوده من خلال المواقف التي يختارها وينخرط فيها .. ولا وجود اطلاقاً قبل الانسان او بعده لاية قوة او مبدأ او شريعة خارجة عنه يسوغ لها ان تفرض نفسها عليه .

هذا تلخيص سريع لفلسفة سارتر او وجوديته .. واية كانت او تكون فلست الآن بصدد شرحها والرد عليها . وغرضي الاول هو التصدي لتحديه في دعوته الى الجدال في الله سبحانه ، ان صح انه دعا وتحدى .. وقبل كل شي اشير الى ان المؤمنين بالله يعتمدون في ايمانهم على منطق العقل الذكي والحس السليم ، ويخاطبون الجاحدين عند الجدال والنقاش بالضمير الحي والفطرة الصافية . وعلى هذا الاساس اوجه الاسئلة لسارتر وغيره من المشككين :

١ ــ لنفترض ان الانسان هو ذاك الكائن الحي الذي حدده سارتر ، فهل اكتشف هو او اي عالم آخر دليلاً قاطعاً على ان الانسان بعد وجوده في هذه الحياة يستحيل ان يملك عقلاً نيّراً يهديه ويرشده ، بمعونة الحس الى خالقه وخالق الكون ، او اكتشف ان ارشاد هذا العقل وهدايته

سراب وتضليل ؟. فان كان شيء من ذلك فليدلنا عليه سارتر وغير سارتر ونحن له من الشاكرين .

٢ – ان سارتر ألّف كتاب المذهب المادي والثورة ، وجاء في ترجمته العربية بقلم سامي الدروبي ص ٤٢ وما بعدها – ما يتلخص بأن الماديين ينفون وجود اي شيء وراء المادة والطبيعة ، ويزعمون ان الايمان به ايمان بالغيب لا يعتمد على الحس والتجربة .. ثم ردّ سارتر قولهم هذا بأن النفي المطلق لما وراء المادة والطبيعة هو ايضاً في حقيقته ايمان بالغيب لا يعتمد على الحس والتجربة . فكيف ابرموا هنا ما نقضوه هناك ؟.

واذا صح ان سارتر قد دعا وتحدى بعد هذا الرد يكون تماماً كالماديين ينقض ما ابرم ، ويبرم ما نقض .

٣ – ليس من شك ان القضايا الانسانية والاجتماعية لا وجود لها قبل الانسان ، لانه هو موضوعها ومحورها ، فالحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين والجارين وبين الولد ووالديه، كل ذلك وما اليه انما يوجد بوجود الانسان ، وينتفي بانتفائه، لانه الشجرة ، وقضاياه الثمرة . اما الكون وما فيه من نظام وشواهد على وجود الخالق ووحدانيته فهو موجود قبل ان يوجد الانسان ، ومـــن الشواهد الكونية ينطلق عقل الانسان بعد وجوده الى الايمان بالله .

وقد اباح سارتر للعقول والافهام ان تكتشف قوى الكون وعناصره واسراره الكامنة فيه منذ البداية ، وان تستغلها لخدمة الانسان ومنافعه ، ما يرى منها كالمعادن ، وما لا يرى كالجاذبية والالكترون – فعليه ايضاً ان يبيح للعقول الاستدلال بالشواهد الكونية على وجود المبدع والمدبر .. اما ان يحجر عليها هنا ، ويطلقها هناك فتفريق بلا مبرر ، وتقسيم للشيء الواحد الى نفسه ونقيضه في آن واحد ، ومن جهة واحدة .

وبعد ، فان اشياء الكون وانواعه لا يبلغها الاحصاء .. ومن اجل هذا تقاسم العلماء فيما بينهم دراسة الكثير منها ، وتخصص لكل نوع فئة منهم ، فللفلك – مثلاً – علماؤه ، وللنبات خبراؤه ، وللحيوان اخصاؤه .. الى ما هو واضح ومعروف ، ويستحيل على الفرد او الجماعة ان يحيط ويحيطوا علماً بجميع اشياء الكون وانواعه . اما الفلاسفة فقد اتجهوا الى البحث عن الوجود مطلقاً في كلياته وجزئياته وقدمه وحدوثه ، ومصدره ومآله ، واستنطقوا ما فيه من بينات وشواهد على ذلك ، وبالخصوص على علته الاولى التي تحدد اتجاهه وحركاته ، وتنظم سننه وقوانينه ، وانتهى الاقطاب منهم الى الايمان بوجودها وصفاتها تماماً كمن سمع ورأى .

٤ – لنفترض ان وجود الله من المسائل النظرية تقبل الجدال والنقاش على الرغم من وضوح الدلائل وكثرة الشواهد،

ولكن من المعروف والمؤكد بين العلماء منذ القديم ان لكل مجتهد رأيه وقناعته في كل مسألة نظرية، ولا يجوز بحال ان يتنازل عن رأيه لمجتهد آخر يخالفه في النظر ما دام كل منهما يعتمد على حجة ودليل عنده ، ولا برهان واضح ومسلم به عند الطرفين على ان هذا مصيب قطعاً ، وذاك مخطيء يقيناً .

ونحن نؤمن بالله لدليل عندنا وليس عند سارتر، وهو يكفر لشبهة عنده وليست عندنا ، فهل يسوغ له ، وهو لا يملك الدليل المسلم به عندنا ان ينكر علينا الايمان لشبهته ، ولا يسوغ لنا ان ننكر عليه الالحاد لدليلنا ؟

ومهما يكن فان صخب الملحدين وهتافهم لأئمة الكفر والالحاد لا يثني المؤمن عن ايمانه ، ولا يشكك العالم بالله في علمه ويقينـــه .

٥ ـ ان ادلة المؤمنين بالله ليست ارتجالية ، ولا هي جزئيات وكلمات متناثرة هنا وهناك لا يجمعها ضابط ، ولا ترجع الى اصل واساس .. كلا ، فان العلماء والفلاسفة حددوها على اسس منهجية واضحة تعتمد مباشرة او بالواسطة على حقائق بديهية ومسلمات اولية ، وخصصوا لها المعاهد ، وألفوا فيها الاسفار ، ودعوا المؤمن والجاحد الى تمحيصها ودراستها ، واوجبت الاكثرية الكاثرة من علماء الدين على كل عاقل النظر فيها ، وحرموا عليه التقليد والمتابعة

العمياء ، في اي اصل من اصول الدين .. وامر القرآن الكريم في العديد من آياته بالاحتكام الى منطق الحس والعقل والقلب في كل ما يمت الى العقيدة بسبب، وفي التشريع وشئون الاجتماع وآداب السلوك ، كما حث على النظر في ملكوت السموات والارض .

ولا اريد هنا ان اغرق القارىء في زحام المقدمات والنتائج والتفاصيل والارقام ، واكتفي بهذا التساؤل على لسان من ايقن بالله وآمن :

ان كل شيء في الوجود من الذرة الصغيرة الى اعظم المجرات يسير على سنة محكمة ، وينسجم مع غيره من اشياء الكون على ما بينه وبينها من تضاد كالحرارة والبرودة ، والحركة والسكون ، والليل والنهار ، والكل يعمل في تعاون واتحاد كامل ، ويتجه الى غاية واحدة تماماً كعمل الجسم المؤلف من اعضاء متباينة ، وقوى متضادة يدبرها جميعاً عقل واع وارادة حكيمة .

فمن الذي احكم ونظّم هذا الكون بما فيه ، ودبره وهيمن عليه ؟ ووضع كل شيء في المكان الملائم له حتى ادى الغاية من وجوده على اكمل وجه ؟ ومن اين جاءته الحيـــاة والادراك وغيره من الانفعالات البشرية وغير البشرية ؟ وهل ذلك كله من صنع الطبيعة العمياء الصماء ؟ وهل الطبيعة علة لنفسها ولما فيها من ارادة وعقل ونظام ؟ كيف و هي تفتقر

في اصل وجودها الى مقوّم ومدبّر ؟. اما الصدفة فلا تدخل في علمٍ وقانون ، ولا يلجأ اليها الا من شهد على نفسه بالجهل والقصور عن معرفة السبب الموجب . وبالتالي كيف يسوغ لنا ان نحتمل الصدفة في وجود الكون وعجائبه ، ولا يسوغ ذلك في وجود عود ثقاب واحد ؟.

الى كثير من الاسئلة التي ما وجدت حتى الآن ولن تجد اجوبة حاسمة في نظر العاقل المحايد ، بل العكس هو الصحيح فان اقوال الملحدين زادت المؤمنين بصيرة ويقيناً حيث تجاوزت منطق العقل والعلم الى الخرافات والحماقات التي اكدها فولتير ونعت بها الملحدين في قوله : « ان فكرة وجود الله فرض ضروري ، لان الفكرة المضادة حماقات » . (فولتير تأليف جوستان لانسون » ، ترجمة محمد غنيمي هلال ص ٧٣ طبعة سنة ١٩٦٢) . واطرف هذه الحماقات قول نيتشه : « لو كان الله موجوداً لكنت انا هو .. وكيف استطيع ان لا اكون اله ؟.. واذن فليس ثمة اله » . نقل هذا عن نيتشه الفيلسوف الانكليزي الشهير راسل في كتاب السلطان ، ترجمة خيري حماد طبعة سنة ١٩٦٢ ص ٢٩٠) .

وليس من شك ان نيتشه لو كان يملك وسيلة واحدة من وسائل الاقناع – ما لجأ الى هذه الخرافة والحماقة .. امـــا المؤمنون بالله فان رائدهم العقل ، وحليفهم العلم ، وما تقدم خطوة في اي مجال من مجالاته ، وبخاصة في عالم الاحياء ،

وبصورة اخص في التشريح والفلك – الا وزاد الادلة على وجود الله وضوحاً وقوة ، وادلى ببراهين جديدة ، وكشف عن نتائج علمية لا تفسير لها الا بقوة لا تشبه شيئاً من اشياء الطبيعة ، ولا يشبهها شيء.. ومن هنا ايقن بالله وآمن به العديد من رجال العلم واقطابه في هذا العصر . انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم الذي ترجم الى كل اللغات وطبع العديد من المرات .

ومن قبل كان هؤلاء العلماء لا يهتمون بكفر وايمان ، ولا يرون اي داع وموجب للبحث عن ادلة الاثبات او شبهة النفي .. وانما شغلهم الشاغل وظيفتهم وما يدخل في اختصاصهم وكفى ، ولكن الواقع الذي عاشوه مباشرة ، ومارسوه فعلاً هو الذي فرض نفسه عليهم ، وخلق الايمان بالله في قلوبهم من حيث لا يشعرون ويقصدون .

وربما قال قائل : ولماذا البحث فيما وراء الطبيعة ما دمنا نعيش فيها لا وراءها وفي خارجها ، وقد اكتشفنا من اسرارها ما ننتفع به ، وما زلنا على هذه الطريق نجدّ السير للغاية نفسها ؟. أليس الاجدر والانفع ان نسكت عما لا يعنينا من قريب او بعيـــد ؟.

الجـــواب :

ان الايمان بالله وقدرته وعدله يعني ان الانسان لا يترك سدى ، وانه مسئول عما يفعل ويترك ، وان المسيء لا يفلت من العقاب ، وان المحسن يكرّم ويثاب .. هذا ، الى ان آثار

الدين ومعطياته لا تقف على العبادة في المساجد والكنائس ، بل تتجاوزها الى السياسة والاقتصاد ونظام الاسرة والكتب السماوية والاماكن المقدسة ، وكثير من التقاليد والعادات .. ومن اجل الدين قامت حروب اجرت الدماء انهراً ، وثارت خلافات قسمت البلد بل البيت الواحد الى اجزاء ، وشيّدت صروح ومعاهد ، استهلكت الكثير من الارزاق والاقوات ، وتكونت هيئات ودول واحزاب ، ووضعت مؤلفات بمختلف اللغات .. حتى الدول الملحدة فيها دوائر خاصة للشئون الدينية .

وقال كثير من اهل الاختصاص : « ثقافة كل امة تنطلق من دينها وايمانها » وترفض الكثير من الفلسفات والانظمة ، لأنها لا تتجاوب مع ما تدين وتعتقد .. ابعد هذا وغيره كثير وخطير يقال : لماذا البحث في الدين وأيهما ابعد اثراً في الحياة الدين : او الوجودية والبرجمانية والماركسية ؟ وكيف حسن البحث في هذا دون ذاك ؟.

وبعد ، فان الدين هو السمة العامة التي تحدد حياة البشرية كلها او جلها في كل مرحلة من مراحل التاريخ .. والايمان بالله قديم واصيل ، يقوم بنيانه على اساس العلم والعقل والحجة والقناعة ، وقد واجه الكثير من التحديات والمؤامرات ، وكلها تبخرت مع الريح .. وبقي الدين متوجاً على عرشه تركع له جباه الملوك والجبابرة « بل له ما في السموات والارض كل له قانتون » .

بين المؤمنين والملحدين

كيف يؤمن بما لا يرى ؟

هذا الفصل تابع للفصل السابق ، او كل منهما فرد مستقل من موضوع عام ينطبق على العديد من الفصول .

قال الملحدون : لقد آمن بالله من آمن دون أن يراه بحس ، ويتناوله بتجربة ، وإنما فرض وجوده ليُفسر به الكون ونظامه الحكيم الدقيق بعد العجز عن تفسيره بالعلم ومنطق الحس ، زاعماً أن مثل هذا النظام الكوني لا يمكن أن يصنعه شيء الا قوة خارقة فوق المادة والطبيعة .. ثم قال الجاحدون : وهذا مردود اولاً لانه ايمان بالغيب . ثانياً ان النظام الكوني تولد من نفس الكون لا من قوة خارجة عنه ، وقد أودعت فيه النظام والانسجام – كما يدعي المؤمنون – ويُعرف هذا التعليل بالتولد الذاتي والتفسير الميكانيكي.

حتمية الايمان بالغيب :

وأجاب المؤمنون عن الاعتراض الأول بأن كل من آمن بشيء لم يره فقد آمن بالغيب ، والمنكرون للقوة الخارقة

المدبرة يعتقدون بوجود أشياء لا يمكن أن تنالها يد التجربة ، ويستحيل على الحس أن يصل اليها بأية وسيلة من الوسائل ، ومن ذلك – على سبيل التمثيل – الجاذبية في المادة ، والمغناطيس في الحديد ، ووجود الكترون ، وما يجري في العقل من تفكير واستنتاج ، ويرتسم في الذهن من صور ، ويختلج في القلب من ميول ، ويرسخ فيه من ايمان .. وكيف تختزن الذاكرة المعلومات ، وتحتفظ بها لوقت الحاجة .. وقد حيّر لغز الذاكرة العلماء بعد أن اكتشفوا أن في طاقتها أن تستوعب بلايين المعلومات ، وأيضاً يعتقد الماديون بوجود الأثير الذي تألف منه الكون دون أن يقع تحت اختبارهم . وتأتي الاشارة .. ومثله الزعم بأن أصل الانسان قرد .

هذا ، الى أن عالم الفلك يؤمن بوجود كوكب غائب عنه ويحدد مكانه من حركة كوكب آخر شاهده وراءه ، والطبيب يكتشف نوع المرض من ظهور آثاره ، والقاضي يحكم بالدماء والأموال من القرائن القضائية وغيرها دون أن يرى الجريمة ويشاهدها ، وصاحب الحفريات يتحدث عن الامم الماضية ، والقرون الخالية من مشاهدة البقايا والحطام ، وكل الناس يحكمون على الانسان من خلال سلوكه دون أن يطلعوا على سريرته ، بل ومن صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وايضاً يؤمنون بصدق المحدث اوكذبه من طبيعة كلامه وسياق حديثه ، بل اتفق العلماء والفلاسفة قولاً واحداً على ان الانسان يستحيل عليه أن يُدرك ذات الاشياء الموجودة في الكون وحقيقتها ،

وان كل ما يعرفه عن أي شيء صغير وحقير هو صفاته وظواهره كل ذلك وغيره كثير – ايمان بما لم تنله يد التجربة ولا يصل اليه الحس .

وبعد ، فان الكون يزخر بالحقائق الخفية التي لا تُرى بالعين ذات الطاقة المحدودة ، وما من عاقل على وجه الارض الا يؤمن بالعديد من هذه الحقائق ، ويرى الايمان بها من الضرورات الأولية التي لا مفر منها لأحد على الاطلاق . واذن فبالاولى أن يكون الإيمان بالله ضرورياً بعد ظهور آثاره في خلقه الذي تعجز الأوهام والألسن عن وصفه . وقال بعض الفلاسفة : « حد العقل أن ينتقل الانسان من معلوم الى مجهول ، من شاهد الى غائب ، من حاضر الى مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر ، او الى ماضٍ ذهب وانقضى ولم يعد مرئياً مشهوداً .. فاذا لم يكن ذلك فلا عقل »[١] .

ومعنى هذا أن من لا يؤمن بالله لا لشيء الا لأنه لم يره بالذات – فلا عقل له ، لأن مهمة العقل أن يرشدنا الى ما لا يمكن ادراكه بالحس والتجربة ، وان يحذرنا مما تخبئه الايام ، وينفعنا برؤيته وموعظته .. والذكي الألمعي هو الذي يفهم من الاشارة ، ويدرك المغيبات من القرائن ، ويؤمن بها حتى كأنها مجسدة أمام عينيه . وقديماً قال الشاعر العربي :

---

(١) كتاب تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود ، الفصل السابع قيم باقية من تراثنا .

الالمعي الذي يظن بك الظن كأن قـد رأى وقد سمعا

خطأ التفسير الميكانيكي للكون :

وأجاب المؤمنون عن الاعتراض الثاني ، وهو التفسير الميكانيكي والتولد الذاتي ، أجابوا بأن المادة جامدة عمياء لا روح فيها وشعور ، ولا وعي وادراك فكيف نظمت نفسها بنفسها ، وقدرت كل شيء في الكون تقديراً على سنن ثابتة ونواميس محكمة ؟.

وحاول الماديون او الكثير منهم حل هذه المشكلة بفرض ضروري عندهم حدساً وتخرصاً ، وهو أنه ـ في بداية ذي بدء وقبل أن يوجد الكون على وضعه الحالي ـ كان هناك أثير ساكن راكد يملأ اطراف الفضاء .. ثم حدثت حركة قوية فجأة ومن باب الصدفة ، واستمرت ملايين السنين ، ومن هذه الحركة الدائبة وحتمية تطور المادة تألف هذا الكون الموجود الآن بأرضه وسمائه ، وجماله وبهائه ، وتخطيطه ونظامه وترتيبه وانسجامه .

وتساءل المؤمنون بالله : من أين جاء العلم بوجود هذا الاثير الذي سبق وجود الكون مع القطع واليقين بأنه لم يقع تحت الحس ولا دلت عليه الآثار والقرائن ؟ ولو سلمنا جدلاً بوجوده فمن الذي أوجده ؟ ثم من الذي حركه ؟ وهل الصدفة والحركة العشوائية الهوجاء تنتج هذا النظام البديع الشامل لأفلاكه وكواكبه وذراته ومجراته ؟ .

واذا وجد الكون بما فيه ومن فيه من باب الصدفة فلماذا لا يكون هذا الزعم صادراً عن زاعمه صدفة وعن غير قصد .. وكذلك قفز الانسان الى القمـر ، ووجود القرى والمدن ، والمصانع والمعاهد ، وجميع المخترعات ، والأسفار والأشعار ، كل ذلك وما اليه ماكان ويكون من باب الاتفاق والصدفة !.. وكيف ننسب الكون ونظامه العجيب الى الصدفة ، ولا نترك لها نحن اتفه الأمور ؟ ثم هل يسوغ لنا أن نذم ونعاقب من أساء وأجرم ، ونمدح ونثيب من أحسن وانعم ، ونحن نؤمن بنظرية الاحتمال وقانون الصدفة ؟.

وهل يقبل العاقل الخبير العليم أن عقله وشعوره تولدا من مادة لا عقل لها ولا شعور ، وان سمعه وبصره أوجدهما ما لا يسمع ولا يبصر ؟ وايضاً هل يقبل عقل عاقل أن بصمات الاصابع وملامح الوجوه وروائح الاجسام قد اختلفت بين الملايين من ابناء البشر ، هل يقبل العقل ان كل ذلك حدث لمجرد الصدفة ؟.

القرود واشعار شكسبير :

واستدل متفلسف في القرن العشرين على صحة قانون الصدفة ـ بأنه لوفرضنا ان عدداً من القرود ضربوا اجيالاً طويلة على آلات كاتبة ، لوجدنا بين ما خطته كلّ اشعار شكسبير ، وهكذا حدث نظام الكون بعد الحركة العشوائية التي طرأت على الأثير.

ونقول في رده : ان هذا الفرض ليس ضرورياً ، بل

الأقرب إلى إلفة العقل أن لا نجدفي خطوط القرود عينا ولا أثراً لأشعار شكسبير .. ولو سلمنا جدلاً بهذا الفرض لوجدنا الى جانب اشعار شكسبير ملايين الخطوط بلا هدى ومعنى مع العلم بأن ما من شيء في هذا الكون الكبير العظيم الا بتقدير محكم ، ونظام مستمر بحيث لو زحزح عنه لانفرط عقد الكون وتناثر .

وتسأل : اذا كان الله أوجد الكون فمن الذي أوجد الله سبحانه ؟.

الجـــواب :

ان الكون المستمر التغيير والتطور لا بد أن ينتهي الى علة أولية قائمة بذاتها ، لأن تسلسل العلل الى غير نهاية يرفضه العقل ولا يألفه ، ولو احتاج كل شيء في وجوده الى علة لاستحال ان يوجد شيء على الاطلاق . وبقي العالم طي العدم والكتمان .. وبكلام آخر كل مالا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده لا بد ان ينتهي الى موجود يحمل في طبيعته سبباً كافياً وافياً لوجوده .

وبهذا يتبين معنا مكان الخطأ في قول من قال : يستحيل ان يوجد شيء من لاشيء .. اذا اعتبرنا هذا القول أصلاً طبيعياً وقانوناً حتمياً يطرد في كل شيء بلا استثناء ، إذ يلزم ، والحال هذي ، أن لا يوجد شيء من الاساس مهما كان ويكون حتى هذا القول وقائله .

وبقصد التوضيح نضرب مثلاً بالمخترعات : فكل اختراع من أي نوع كان لا بد أن ينتهي الى مخترع اول ابتدعه من افكاره

بالذات ، ولم يأخذه من غيره ، ولو افترض انه لا مخترع اول وجب أن لا يُوجد اختراع على الاطلاق .. مثال ثان : كل ما كان دليلاً على غيره لا بد أن يكون من الأوليات الضرورية والمسلمات البديهية ، يُستدل به ولا يُستدل عليه ، او ينتهي الى دليل كذلك ، ولو احتاج كل دليل الى دليل ما كان لفكرة الاستدلال عين ولا أثر .

سؤال ثان : أجل ، لا بد أن نفترض وجود علة قائمة بذاتها غير معلولةٍ لغيرها ، ولكن لماذا لا نفترض أن المادة هي واجبة الوجود ، وانها تحمل في طبيعتها السبب الكافي لوجودها ؟ وسبق الجواب عن ذلك في فقرة « خطأ التفسير الميكانيكي للكون » وان المادة الجامدة العمياء يستحيل أن تنظم نفسهـــا بنفسها ، وان القوانين والمقادير لا توجد بلا خالق قادر وعالم وحكيم . وايضاً تقدم قول فولتير : « ان وجود الله فرض ضروري ، لأن الفكرة المضادة حماقات » .

وتجدر الاشارة الى ان بعض المؤمنين قالوا : لا فرق بيننا وبين الماديين ، لأن كلاً منا يؤمن بفكرة واجب الوجود سوى أننا نسميه نحن الله ، وهم يسمونه الطبيعة !. وذهلوا عن ان التفسير الميكانيكي للكون معناه أن المادة هي الموجود الوحيد ، وانه لا شيء وراءها اطلاقاً . وهذا انكار لله الذي ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته .

فلسفات متهافتات :

وبعد ، فلا بدع اذا ارتابت فئة قليلة او كثيرة في وجود الله ، لأنها ما رأته ولا يمكن أن تراه ، فان السفسطائيين شكوا في وجود الكون وفي انفسهم وفي شكهم انهم يشكون ، ونظروا الى الكون نظرتهم الى العدم المحض ، لأن العقل بزعمهم يعجز عن معرفة أي شيء حتى عن معرفة نفسه !.

وقال انصار المذهب السلوكي ، كما في كتاب « الفلسفة بنظرة علمية لراسل » قالوا : لا وجود للصور الذهنية ، لأنها لا ترى وتحس ، فاذا شعر الانسان بأنه يفكر ويتصور فشعوره هذا وهم وخرافة .

وقال المثاليون ، وفيهم اساتذة واقطاب : لا وجود لعالم قائم بذاته ، ولا شيء في الوجود على الاطلاق الا اذا أدركه عقل من العقول ، وما لا يدركه عقل فلا وجود له .

فكل واحدة من هذه الفئات انكرت وجود المحسوس لفلسفة تؤمن بها ، وترى غيرها خطأ وضلالاً .. واذن فلا غرابة أن يجادل في الله لسبب او لآخر من رأى أثره في خلقه دون أن يراه !. هذا اعترف بالخلق وانكر الخالق ، واولئك المتفلسفون انكروا الخالق والخلق الذي رأوه بالعين ولمسوه باليد .. فكيف نتوقع اعتراف الجميع بالله سبحانه وبالحق والواقع مع هذه الفلسفات المتناقضة المتضاربة ؟. هذا بالإضافة الى التعصب الأعمى الذي نشير اليه في الفقرة التالية .

لا انسانية بلا حرية :

ونعطف على الفلسفات المتهافتة من اعماهم التعصب ، شعر هؤلاء بقصورهم وعجزهم عن مواجهة الأدلة الكونية والعقلية على وجود الله فلفوا وداروا وحاكوا بعض الشبهات والاوهام ، يلقونها في عقول البسطاء السذج ، ومنها : لو كان الله موجوداً لانتصر لمن آمن به من المستضعفين ، وأهلك الجبابرة والجاحدين وزلزل الارض بالاستعمار والصهيونية واسرائيل .. وأسخف من هذا ما حدثني به احد الشباب : ان زميلاً له في الدراسة قال لرفاقه : ان كان الله موجوداً فليقطع يده او يردها الى الوراء !.

الجـــواب :

ان الله سبحانه كرم الانسان بنعمة العقل والارادة والقدرة ، وبيّن له الخير والشر ، ونهاه عن هذا ، وأمره بذاك ، وفي الوقت نفسه حثه على التفكير وأعمال العقل ، واعتبر إهماله جريمة تستحق العقاب . وبالعقل يميز الانسان بين الهدى والضلال وبالإرادة يختار لنفسه ما يحب ، وبالقدرة يفعل وينفذ .

وبهذه العناصر الثلاثة قوام الانسان وماهيته ، إذ لاانسانية بلا عقل وقدرة وحرية .. ولو أن الله سبحانه تدخل بالقهر والغلبة في أي شأن من شئون الانسان ، او ألجأه الى الايمان الجاءاً ، او أهلك اعداءه بالخوارق والمعجزات كقطع يد التلميذ الأرعن او ردها الى الخلف ، لو فعل الله شيئاً من ذلك لسلب الانسان حقه في أن يوافق او يرفض ، وان يؤمن او يكفر ، وأن يفعل

أو يترك ، ومعنى هذا أنه لا وزن لعقل الانسان ، ولا لإرادته من موضوع ، ولا لقدرته من أثر.. ومن أجل هذا ترك سبحانه النواميس الكونية والاجتماعية تعمل عملها في المؤمن والكافر : « ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ـ ٤ محمـــد » .

ومن طريف ما قرأت في هذا الباب : أن الريح اذا كانت تهب جنوباً ، وأبحر المؤمن بالله باتجاه الشمال فان الله سبحانه لا يأمر الريح بالهبوب شمالاً إكراماً لمن آمن به واخلص له .. واذا أبحر المؤمن باتجاه الريح المواتية لقصده ، وشكر الله على ذلك فان شكره هذا وقاحة وانانية ، لأنه يعني أن الله لا يحب الذين أبحروا بالاتجاه المعاكس لاتجاهه .

وأوقح من هذا وأقبح أن اليهود ما آمنوا بالله قديماً وحديثا الا بزعم أنه لهم وحدهم ، ومع مصالحهم الشخصية يدور معها حيثما تدور ، فاذا تركها غضبوا عليه ، وما آمنوا بموسى (ع) الا بعد أن اشترطوا أن يكون إلهه قوة عاملة في حياتهم اليومية . وفي التوراة سفر التثنية الفقرة ٧ من الاصحاح ٧ والفقرة ٢ من الاصحاح ١٤ : ان اليهود هم شعب الله المختار وانهم فوق الشعوب .. وفي الاصحاح ٣١ من سفر العدد ، والاصحاح ١٣ من سفر التثنية : ان الله أباح لليهود دماء سائر الشعوب واموالهم .

وبعد نكسة حزيران سنة ١٩٦٧ جاءني بعض الشباب يسألون : كيف يسلط الله الصهيونية على العرب والمسلمين ؟.

فضربت لهم مثلاً برجلين : أحدهما يكفر بالله ولا يطيعه في شيء ، ولكنه يحسن فن السباحة ، وآخر يؤمن بالله ، ويعبده باخلاص ، ولكنه يجهل طريق العوم والسباحة .. فاقتحما البحر معاً بقصد المباراة ، فرسب المؤمن وهلك لأنه أطاع الله في كل شيء ، وعصاه في النزول الى البحر قبل أن يُعد له العدة ، وعام الكافر ونجا لأنه عصى الله في كل شيء وأطاعه في النزول الى البحر ، بعد أن أعد له عدته ... وهكذا ربحت اسرائيل ، وخسرنا نحن ١٩٤٨ و ٦٧.

والخلاصة أن الله سبحانه أبى ان يقبل الايمان به الا اذا تجسد في العمل الحي المثمر .. وايضاً أبى ، عظمت حكمته ، أن يجري الامور الا تبعاً للسنن والنواميس التي لا تبالي بمصير كبير او حقير ، ولا تدخل في حسابها مؤمناً او كافراً.

حول الدين والعلم

الاستاذان : صعب والترك :

قرأت في ملحق جريدة النهار ٣ — ٣ — ١٩٧٤ مقالاً بعنوان « الملحدون عن طريق العلم لم يفهموا العلم » للاستاذ اديب صعب ، ثم قرأت الرد عليه بعنوان « حرب المواقع بين العلم والايمان » للاستاذ زياد الترك في الملحق ٢٤ — ٤ — ٧٤ .. ولهذا البحث أهميته الكبرى من حيث الفكر والعمل ، واتمنى لو يكون مقال صعب وكلمة الترك بداية حسنة لحوار طويل ومفيد بأقلام اخصائيين يتمتعون بروٴية مجردة الا من وسائل العلم ومناهجه .. وعسى ان تكون امنيتي هذه حافزاً للاقلام الراشدة الناقدة .

تحديد المعنى والخطأ المحتمل :

وقبل كل شيء امهد بما يلي :

اولاً : تحديد المراد بكلمة العلم والدين كيلا نقع في سوء الفهم الذي يجرنا الى خلافات جانبية ، ويقف حائلاً دون الاتفاق على رأي .. والعلم بمعناه العام معرفة الشيء بما هو عليه عن اي

طريق كان ، ونريد به هنا معناه الشائع النابع من الحس والتجربة. وللدين معان شتى ، ونريد به الايمان بالله الذي يهدي للتي هي اقوم ، ولا يريـــد بعباده الا الخير واليسر ، وهذا الايمان هو اصل الاصول ، ولا يمكن الحديث عن النبوة والوحي ، وحلال الله وحرامه الا بعد الدليل القاطع على وجود الله وصدق الايمان به .

ثانياً : ينبغي للعالم ان يتذكر على الدوام ان ما غاب عن علمه اكثر بكثير مما احاط به علماً .. حتى هذا قد يكون خطأ وجهلاً مركباً ، وان يتقبل النقد الواعي بفهم وتواضع .. وفي نهج البلاغة ان منافقاً اثنى على الامام علي (ع) فقال له : انا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك .. واثنى عليه موٴمن فقال له : « لست في نفسي بفوق ان اخطيء ، ولا آمن ذلك من فعلي الا ان يكفي الله من نفسي ما هو املك به مني » . ابداً لا ترى عالماً بحق ، ولن تراه إلا متهماً لنفسه خائفاً من الوقوع في الخطأ .

احدى الدعوتين ضلالة :

ركز الاستاذ صعب مقاله على ان معطيات العلم الحديث بشتى انواعها لا تتنافى مع الايمان بالله ، لا من حيث هي ولا من حيث مصدرها .. وابتدأ كلامه بتقسيم هذه المعطيات الى اقسام ثلاثة ، وقارن بين كل قسم منها وبين الدين وانتهى الى انـــه لا تناقض بينهما ، وان من قال بوجود التناقض بين العلم والايمان بالله فهو جاهل او شرير .

وقال الاستاذ الترك : ان الصراع بين العلم والدين قائم ودائم

ولا يتفق الدين ويتعايش الا مع الفلسفة المثالية القائلة بأن الفكرة تسبق الواقع ، وهو انعكاس عنها على الضد من الفلسفة المادية القائلة بأن الواقع يسبق الفكرة ، وهي انعكاس عنه .

وبعد هذه الاشارة الخاطفة الى قول صعب والترك — اعرض الحقيقة كما هي في فهمي ومعرفتي .. وليس من غرضي ان اؤيّد او أفنّد هذا او ذاك، ولكن الحقيقة تعرف وجه صاحبها ، وتشهد له .

الحقائق اخـوات :

يصعب على الفهم ان يحدد المعنى لكلمة الحقيقة مطلقة من غير قيد — تحديداً جامعاً مانعاً ، لانها تعم وتشمل حقائق عديدة ومتنوعة في لونها وماهيتها .. ويهون ذلك اذا اردنا تحديد اية حقيقة بطابعها ونوعها الخاص مستقلة عن غيرها من الحقائق كالحقيقة اللغوية او الاقتصادية وما اليها . والذي يهمنا في هذا البحث هو تحديد الحقيقة الدينية والعلمية : هل بينهما صراع واصطدام تماماً كالايمان والالحاد ؟

وفي رأينا ان الاصطدام لا يحدث ، ولا يمكن ان يحدث بين اية حقيقة واخرى من اي نوع تكون ما دامت كل واحدة منهما تدور في فلكها المحدد ولا تتعداه وتقاس بمقياسها ولا تتجاوزه ، وكيف يحدث الاصطدام بين الحقائق ، والانسان بحاجة اليهـا جميعاً ؟.. اجل ، اذا حرّفت الحقيقة عن مواضعها ، وتكلم

باسمها جاهل متطفل ، او خائن منافق — يحدث عندئذ الصراع والنزاع ، ولكن بين هذا الدخيل والطرف الاصيل .

ويجدر التوكيد على ان عدم الصراع بين الحقائق ، لا يعني ان بعضها يدل على صحة بعض .. كلا ، فأية علاقة بين تفتيت الذرة — مثلا — وبين الحقيقة السياسية ، او بين زيادة الانتاج والالحاد ؟. وانما يعني ان طبيعة اية حقيقة لا تعاند طبيعة غيرها من الحقائق ، سواء التقت الحقيقتان في النهاية على صعيد واحد كالعلم والدين يلتقيان في خدمة الانسان وتحقيق رغباته وامانيه ، ام لم يلتقيا اصلاً .

الفرق بين الحقيقتين :

تفترق الحقيقة الدينية — اي الايمان بالله — عن الحقيقة العلمية بأن موضوع الاولى وراء الطبيعة ، وموضوع الثانية الطبيعة .. اجل، الاحكام الالهية موضوعها عقيدة الانسـان واقواله وافعاله، ولكن موضوع احكامه تعالى شيء ، والايمان به شيء آخر .

هذا من ناحية الموضوع ، اما من ناحية الطريق والمنهج فالحس للحقيقة الطبيعية والعقل للحقيقة الرياضية ، وهما معاً للايمان بالله .. تنظر العين الى الكون ونظامه العجيب فيحكم العقل — مستنداً الى مبدأ العلية — بوجود المكون العظيم ، والمنظم الحـكيم .

تعاون العلم والدين :

واذا اختلف الدين والعلم موضوعاً ومنهاجاً فانهما يلتقيان على صعيد واحد ، وهو خدمة الانسان ومصلحته – كما سبقت الاشارة – ومن هنا حث الانبياء والكتب السماوية على طلب العلم ، وجعله الاسلام فريضة ، ورفع اهله درجات ، واثنى على الراسخين فيه .. والعدو لا يرفع من شأن عدوه .. امـــا المصادمات التي ظهرت في التاريخ بين المنتسبين الى اهل الدين والعلم فهو من الدخلاء واللصقاء .

وبعد ، فان الدين يهدي لحياة أفضل ، ويبارك كل ما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع ، والعلم يسهم عملياً في هذا الميدان الى ابعد الحدود ، واذن من اين يأتي الصراع والنزاع !. وعلى الاقل يقف كل منهما من الآخر موقف الحياد ، لا صراع ولا اصطـــدام .

اتخذ الهه هـــواه :

جاء في آخر مقال الاستاذ صعب : « الشرير هو من قـــال في ذاته : انا هو الاله » . وختم الاستاذ الترك كلمته بقوله : الفلسفة المثالية تجعل الانسان يقول : انا هو الله .

وفي ظني ان هذه الكلمة أليق بالفلسفة المادية وألصق ، لانها تعتبر المادة هي الموجود الوحيد ، ولا شيء قبلها ولا بعدها وهذا الوصف من اخص خصائص الاله .. وفي كتاب تفكير

كارل ماركس نقد الدين والفلسفة ، ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي : ان فورباخ قال : الانسان هو اله الانسان .. وكان فورباخ من اقطاب الماديين ، كما في كتاب تفسير الاشتراكية للتاريخ ، تأليف انجلز ، ترجمة الدكتور راشد براوي .

وقال سبحانه في قرآنه الكريم الآية ٤٣ من الفرقان : « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » . وتوميء هذه الآية الكريمة الى ان نزعة الايمان الذي يدفع على العمل والثبات والاصرار هي اصيلة في فطرة الانسان ، وانه اذا تخلى عن الايمان بالحق آمن وتعبد بهواه .. وقد يتمثل هذا الهوى بالجاه والمال ، او بالتعصب للاهل والعشيرة ، او لأي صنم من الأصنام .

وبالتالي ، فنحن نؤمن بالله عن طريق الحس والعقل ، ونؤمن ايضاً بأنه تعالى ما شرّع حكماً منافياً للعلم ، ولا للطبيعة ونواميسها ، ولا لمصلحة اي انسان ، وان نسب شيء الى دين الله يتنافى مع هذه الحقيقة فهو من جهل الجاهلين ، او دسائس المفترين .

اللادينية والعلمانية

هذا الفصل من توابع الفصل السابق وذيوله ، او جزء منه ومكمل له ، وأفردته بالبحث لأهميته ، ولأن الفصل السابق كان من وحي مقال صعب ورد الترك عليه .

تشكيل العقول :

للإعلام في العصر الحاضر علم مستقل ، له اصوله وقواعده وعلماء بارزون واساتذة في علم النفس والاجتماع ، امـا اجهزته ووسائله فقد بلغت الغاية والنهاية من الدقة والتطور حتّى أصبح القائمون عليها يشكلون عقول السذج ، ويتجهون بها عن طريق التضليل والتمويه الى حيث يشاؤون .

فباسم السلم يسيرون بالعالم الى حافة الهاوية ، وباسم الدفاع عن الحرية يقتلون الأحرار ، وينعتون قوى الشر والبغي « بالعالم الحر » وباسم التجدد والتطور يحاربون الدين والقيم الانسانية ، ومن ذلك – على سبيل المثال – تسمية اللادينية بالعلمانية ،

ويعنون بها ان الدين والعلم ضدان لا يجتمعان ، لأن الدين غيب كله[١] وفوق الحس والعقل ، كما يزعمون ، والعلم يدرس الشيء المحسوس الذي يخضع للملاحظة والتجربة .

وحدّد الملحدون أهم القضايا العلمية التي تُنافر الدين وتعانده ، وهي بزعمهم ثلاث : الأولى اكتشفها علم الطبيعة ، والثانية علم الاحياء ، والثالثة علم النفس . والتفصيل فيما يلي :

من علم الطبيعة :

قالوا : كان البدائيون يعللون ما يحدث بالكون بقوة تكمن وراءه وخارجة عنه ، ومع الايام اكتشف علماء الطبيعة أن في الكون نفسه قوانين ثابتة وصارمة لا تتغير ولا تتبدل ، وبها وحدها ترتبط حركات الأفلاك وكل ظاهرة طبيعية من اكبر كبيرة الى اصغر صغيرة ، ومن هذه القوانين الجاذبية ، وحركة الذرة واغلفتها الالكترونية وغير ذلك .. واذن فلا شيء وراء الطبيعة يدعو الى الايمان به .

الجواب :

ابداً لا علم ولا فلسفة بلا عقل مادية كانت او مثالية ،

---

(١) ينطبق هذا على المسيحية دون الاسلام .. ولكن بعض المعممين يصر فيما يخطب ويكتب بأن الاسلام كله غيب في غيب حتّى الاجتهاد ، وهو في ذلك مع أعداء الدين من حيث يريد او لا يريد . وفي كتـابي الاسلام بنظرة عصرية فصل الدفاع عن الدين اثبت ان قضايا الاسلام على انواع ، وليست بكاملها غيباً.

والفرق أن وجود الحقائق سابق على وجود العقل في الفلسفة المادية على العكس من الفلسفة المثالية التي تعتبر وجود العقل هو السابق . وايضاً تعتمد المثالية على التأمل التجريدي ، والمادية على التأمل الناشيء من الممارسة والتجربة الحية .. والمهم انه لا غنى عن العقل اطلاقاً لأية فلسفة كانت وتكون .

واعتماداً على العقل ومنطقه نسأل : اذا فسرنا حركات الكون وحوادثه وضروب نشاطاته ، اذا فسرنا كل ذلك بالقوانين الموجودة في الكون نفسه — فبأي شيء نفسر هذه القوانين الموجودة في نفس الكون ؟ ومن الذي اودعها فيه لتحفظ عليه نظامه ووحدته ، وتكون سبباً مباشراً لأشيائه واحداثه ؟ وهل يسوغ في منطق العقل ان نترك كل ذلك للفوضى والصدفة ؟ وعلى حد ما قال شوقي امير الشعراء : « الطبيعة من طبعها ؟ » . وهل من جواب عند العقل السليم الا القول : ان وراء هذه القوانين الدقيقة الصارمة علة أولية ذات قصد وغاية وعلم وقدرة ينتهي اليها كل شيء ، ولا تنتهي هي الى شيء ، بل لا يعقل بحال أن يكون غيرها علة لها والا لما وجد شيء على الاطلاق .

ولمجرد التوضيح نضرب مثلاً بالساعة وصانعها .. انه نظّم آلاتها وربط بعضها ببعض على شكل هندسي معين بحيث تعمل بمجموعها تلقائياً لتدل على الدقيقة والساعة ، بل واليوم والشهر تماماً كما أراد الصانع المنظم .. وهكذا الكون : كواكبه واشياؤه كآلات الساعة ، وترتيب كل شيء وكوكب في فلكه

ومكانه كتنظيم آلات الساعة ، وكلٌ من ظواهر الكون وحركة الساعة تستند الى السبب المباشر الملاصق ، وينتهي هذا السبب الى الصانع والمنظم .

من علم الاحياء :

وايضاً قالوا : ثبت في علم الأحياء أن اصل الانسان قرد ، والدين ينكر هذا ويقول : وجد الانسان اول ما وجد على ما هو عليه الآن .

ونجيب بايجاز شديد : ما من أحد شهد خلْق الانسان الأول ، ورآه كيف وُلد وتكوّن .. وهل من المستطاع ان يثبت ذلك بالممارسة الحسية ، او البراهين الرياضية ؟ اما مجرد التشابه بين كائنين في شيء او اشياء — فلا يستدعي أن يكون احدهما اصلاً للآخر .. وقال كثير من العلماء الجدد : ان اصل الانسان غامض ومجهول ، وان القول بتطوره من الاحياء السفلى مجرد حدس وتخمين .

وآخر ما قرأت حول هـذه النظرية ما نشرته مجلة « الايكونوميست » البريطانية في عدد ١٠ آذار سنة ١٩٧٣ ونقلته عنها جريدة الاخبار المصرية تاريخ ٢٣ آذار من السنة نفسها : « ان المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الأمركية قرر أن تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم الى ان نظرية دارون هي افتراضية ، وليست حقيقية » . وتكلمت

عن هذا الموضوع مفصلاً في كتاب الاسلام بنظرة عصرية ، فصل الانسان والقرد .

من علم النفس :

وقالوا : الدين لا يتفق مع التحليل النفسي في نظرية فرويد الذي أدى دوراً ايجابياً في تطور علم النفس .. وتتلخص هذه النظرية بأن نفس الانسان في طبيعتها وملامحها — لا تحدد بعقل او دين ، وانما تحدد بغرائزه وميوله اللاشعورية ، وبخاصة الجنس الذي يكاد يبتلع كل شيء ، ولا سبيل على الاطلاق لإصلاح وتغيير هذه النفسية او الشخصية ، لأن اللاوعي واللاشعور طبيعة ثابتة لها ، وليس وصفاً عارضاً عليها .. ومن هنا لم يفرّق فرويد بين ما يفعله الانسان في نومه ويقظته .. ابداً كلاهما بمنزلة سواء .

أجل — ما زال الحديث عن نظرية فرويد — قد تصطدم رغبات الفرد وغرائزه اللاواعية ، وبالأخص الجنس ، بل كثيراً ما تصطدم مع البيئة وإلزاماتها ، فيضطر الانسان مرغماً — في مثل هذه الحال — الى كبت غرائزه ، وتصبح نفسه مستودعاً للمكبوتات والمحرومات الى ان تجد مخرجاً ومنطلقاً .. وبكلمة ان افعال الانسان عند فرويد تخضع لمبدأ الضرورة والحتمية ولا اثر فيها للعقل والحرية تماماً كظواهر الطبيعة الخاضعة لقوانين الكون الثابتة الصارمة ، واذن لا مكان اطلاقاً للدين والقيم في السلوك البشري . هذا تلخيص شديد لنظرية فرويد .

الجواب :

١ — ان غرائز الانسان وملكاته لا تنحصر باللاشعور ، بل فيه قوى اخرى ترى وتميز ، وتختار وتدبر والا كان الانسان كريشة في مهب الريح غير مسئول عن شيء ، ولا يستقيم حسابه عن فعل او ترك .

٢ — ان فرويد يتجاهل أبسط الحقائق وأوضحها حين يقول : « لا سبيل الى تغيير البنية النفسية ، لانها ذات طبيعة ثابتة » ! واذن لماذا المربي والتربية ؟ .. ان كل شيء فينا وحولنا يتغير ، والجمود والثبات من طبيعة الأموات .. وها نحن بني آدم نرمم انفسنا وحياتنا ونتحكم فيها وفي الطبيعة ، ونعمل جاهدين لنصل الى أبعد مدى من الرقي والتقدم في كل ميدان .

٣ — قرأت مقالاً مطولاً ومتخماً بالعلم للدكتور فؤاد زكريا ، نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية م ١ ع ٤ ، جاء فيه : « أوجد العلم الحديث انفصالاً قاطعاً بين عالم الطبيعة وعالم الانسان ، وقضى على التداخل بين المجالين .. لأن التعارض أصبح واضحاً وقاطعاً بين الشعور الانساني بالحرية ، وبين الضرورة الكونية » .

٤ — ألف « جاسترو » البولندي كتاباً في جزأين رد فيه على فرويد ، واسمى الكتاب الأحلام والجنس ، وترجمه فوزي الشتوي ، ومما جاء فيه : « ان العلماء درسوا بضعة آلاف من الاحلام لبضع مئات من الناس ، فوجدوا لا أقل من ٥٠

بالمئة منها لا يمكن تفسيرها بنظرية فرويد ، وان هذه النظرية تترك كثيراً من الاسئلة بلا أجوبة .

وبعد ، فان الدعوة الى الله سبحانه والإيمان به يعتمد على الحجة القاطعة الماثلة في الكون وعجائبه ، ولا شيء في حقائق العلم ، أي علم ، ينافر هذه الحجة الإلهية ويعاندها ، بل قال كثير من أهل الاختصاص : كلما تقدم العلم تزداد الدعوة الى الله قوة ووضوحاً حتى أصبح العلم الحديث مصدراً جديداً من مصادر الايمان به ووجوبه .. ومن زعم أن العلم يناقض الدين وينابذه فهو غافل او مضلل يلبس الحق بالباطل عن علم وقصد .

الشباب والدعاة الى دين الله :

للشباب ثورات وانتفاضات مباركة تنبع من ضمير حي لا من انفعال عابر ، ومن الشعور بالحق والعدل لا من مصالح ضيقة .. وما اكثر الشواهد على هذه الحقيقة ، فمنذ أمد قريب انفجرت ثورة الشباب في امريكا ، وارتفعت موجتها الى اوربا ، وهدفها الأول النظام القائم على حكم المؤسسات العسكرية ، وارباح الشركات الاحتكارية .. وحاولت اجهزة التضليل والدعاية الزائفة أن تفسر هذه النقمة والثورة بأنها ضد الاشخاص القائمين على النظام ، وليست ضد النظام ، كيف وهو يوفر للشباب المطالب المادية التي تحسدهم عليها الشعوب النامية والاشتراكية ؟

ولكن الثائرين فندوا هذا الزعم ، وأعلنوا على الملأ أنهم لا يستهدفون الأشخاص ، بل اسلوب الحياة ، وتحطيم النظام الراهن ، والتحالف الشرير بين الدولة والصناعة العسكرية ليحل مكانه العدل والأمن لجميع الشعوب المسالمة .. وكتب الدكتور فؤاد زكريا كلمة حول ثورة الشباب ، نشرتها مجلة الفكر المعاصر المصرية في عدد كانون الأول سنة ١٩٦٩ ، جاء فيها :

« ان الشباب الامريكي في ايامنا هذه لا يهدف الى اقل من انقاذ العالم بأكمله » .

وما من أحد يعمل لتحقيق هذا الهدف الا ويلتقي مع رسالة محمد (ص) كائناً من كان ، قال سبحانه محدداً هذه الرسالة الكريمة : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين — ١٠٧ الانبياء » . وايضاً يلتقي مع رسالة السيد المسيح (ع) الذي قال في انجيل يوحنا الاصحاح ١٢ فقرة ٤٧ : « لم آت لأدين العالم بل لاخلص العالم » . وحماة الدين من مسلمين ومسيحيين اعلم الناس بهذه الحقيقة .. ومع هذا يتجاهلون ثورة الشباب على قوى البغي والشر ، ومنهم من يؤازر هذه القوى الطاغية الباغية ، ويدافع عن مفاهيمها واهدافها ، ويغدق على الشباب الثائر ضدها أقذر الأوصاف وأقبحها .. ومن هنا اتسعت الهوة بين الشباب وشيوخ الدين ، ورجم كل فريق صاحبه بالتهم والظنون .

ولو وقفنا نحن أهل الدين مع الشباب في كل عمل ونضال يهدف الى الخير ، وباركناه باسم الدين وشريعته ، لو فعلنا ذلك لوثقوا بنا واستجابوا لطاعة الله ، واقبلوا عليها مهتدين .. هذي هي الوسيلة ، او خير الوسائل في الوقت الحاضر لجذب الشباب الى الدين ، واكثر نفعاً من الف كتاب وخطاب في الوعظ والإعلان عن عظمة الدين ومنافعه ، والتصدي لأعدائه بشرح البينات ، ودفع الشبهات .. ولكن — يا لله ولدين الله — من فئة تقف من الشباب موقفاً يُنفّر ولا يُبشّر ، ويُبعّد ولا يُقرّب .. ثم تدعو بالويل والثبور ، وتنادي واديناه .. كفر الجيل الجديد ، وتحول الى الزندقة والهرتقة ، وهي أول المسئولين عن هذا الخطر والخطل .

وربما قال قائل : كيف يساند حماة الدين من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ؟

ونجيب اولاً أن الغرض من هذه المؤازرة والمساندة أن نحتوي الشباب ، ونضمهم الى رحاب الدين قبل أن تتجاذبهم تيارات الكفر والإلحاد . ثانياً ان مفهوم الشر والرذيلة لايناط بالإلحاد وحده والا كان الكذب ممن آمن بالله خيراً وفضيلة ، والصدق ممن كفر به شراً ورذيلة ! .. ان الاعمال تقاس بما في طبيعتها من خير او شر ، وما يترتب عليها من فساد او صلاح ، وعلينا ان نعترف بالخير والصلاح ونباركه ، ونشجب الشر والفساد وننكره أياً كان فاعله .. وليس من العدل والانصاف أن ندين الشباب وغير الشباب اذا أساؤا ونتجاهلهم اذا أحسنوا .

المادة والحياة

بين الحي والجامد :

في الطبيعة أجسام مادية بحت ، أي جامدة لا حياة فيها ، وهي على انواع كالصخر والتراب والمعادن .. وايضاً في الطبيعة اجسام حية ومتنوعة كالنبات والحيوان والانسان ، ويفترق الجسم الحي عن الجامد من وجوه عديدة نشير الى طرف منها فيما يلي :

١ — ان الجامد لا يتحرك — كما يبدو للعيان — الا بدافع من الخارج حتى الطائرة بلا طيار تسير بموجه من الارض ، اما الجسم الحي نباتاً كان ام حيواناً ام انساناً فانه يتحرك بدافع من داخله ومؤهلاته ، ويتجه تلقائياً الى هدف مفروض عليه ، وهو القيام بوظيفته ، واتمام طبيعته .

٢ — ان جسم الحي يفتقر الى التغذية والا فارقته الحياة .

٣ — ان الحي ينمو ويفرز ويموت ، واذا اشترك النبات مع الحيوان بالتغذية والنمو فان الحيوان يفترق عن النبات بالسمع

والبصر والذوق والشم والألم ، وفوق ذلك يملك الحيوان غريزة الجنس ، ويتقي الأخطار ، وكل هذه الصفات موجودة في الانسان ، ويزيد عليه بحب الاطلاع ، والسعي الى حياة أفضل عن طريق العقل الذي يستدل ويستنبط ، ويحفظ ويدبر ، ويعلل ويبرر .

مراحل الانسان :

مر الانسان بالعديد من المراحل ، وتدرج من الأدنى الى الأعلى ، من شريف الى اشرف فاشرف حتى بلغ القمة التي عبّر عنها سبحانه بالأشد ، تدرج الانسان من لا شيء الى الوجود الترابي أي الجماد ، ومنه الى الوجود المائي اي النطفة ، ثم الى اول مراتب الحياة أي النمو بلا سمع وبصر . ثم الى الوجود الحيواني ، ثم الوجود الانساني .. وتومىء هذه المراحل الى ان الانسان يسير ببطء وهوادة في تكوينه وقوته وصحته وعلمه وادراكه ، بل وفي رصيده وشهرته تماماً كالصرح يقوم على اساس ، ويبنى لبنة فلبنة حتى اذا ارتفع وكمل تعذر هدمه والنيل منه ، وان أي شيء يأتي دفعة وفجأة فهو على غير الأصول والقواعد لا يلبث حتى يزول كالتهريج والإعلان الكاذب .

وقد جمع سبحانه كل المراحل التي مر بها الانسان في الآية ٦٧ من غافر ، قال ، عظمت كلمته :

١ — « هو الذي خلقكم من تراب » من عالم الجماد .

٢ — « ثم من نطفة » عالم الماء .

٣ — « ثم من علقة » تحولت الى مضغة ، ومنها الى اللحم والعظم ، وفي هذا التحول نوع من النمو يشبه نمو النبات .

٤ — « ثم يخرجكم طفلاً » يسمع ويبصر ويشم ويتذوق ويتألم ، ولكنه لا يعقل تماماً كالحيوان .

٥ — « ثم لتبلغوا اشدكم » فتعقلوا وتتدبروا ، وكل مرحلة لاحقة من هذه المراحل هي أعلى وأشرف من السابقة ، فالنبات يمتاز عن التراب بالنمو والحركة ، ويمتاز الحيوان عن النبات بالسمع والبصر ، والانسان عن الحيوان بالعقل والادراك المشار اليه في الآية بالاشد ، وهو قمة القمم .

واهب الحياة :

دعا سبحانه الى الإيمان به ، ودلّ على طرق الهدى الى هذا الايمان ، ومنها انه تبارك وتعالى هو الذي وهب الحياة ، قال جل وعز : « وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حباً فمنه يأكلون — ٣٣ يس » .. وقال : « أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون — ٣١ يونس » .

ووجه الاستدلال باختصار وايجاز — ان الأمر هنا لا يخلو من أحد فرضين : اما أن تكون الحياة من خواص المادة ، ومظهراً من مظاهرها الذاتية ، واما ان تكون من صنع قادر

مريد أودعها في المادة .. وعلى الأول يجب أن تكون المادة حية بشتى انواعها من غير تفرقة بين مادة ومادة اينما كانت وتكون ، وهذا خلاف الواقع الملموس ، واذن يتعين الفرض الثاني ، وهو أن الله سبحانه هو خالق الحياة ومالكها .

الماديون والحياة :

منذ القديم والعلماء يدرسون ، وما زالوا يبحثون عن سر الحياة ومصدرها « ولكنهم لم يصلوا بعدُ الى حل لهذا السر ، وربما لم يصلوا اليه الى الأبد » على حد ما قال الدكتور علم الدين كمال الأستاذ بكلية العلوم جامعة القاهرة – في مقال بعنوان تطور الكائنات الحية المنشور في مجلة عالم الغد الكويتية ج٣ ع ٤ وفي كتاب فجر الحياة لجوزيف هارولد ، ترجمة الدكتور عبد الحليم منتصر ورفيقيه : « من المؤكد ان الكائنات الحية تبدي من الظواهر ما لا يمكن تفسيره طبقاً لخواص المواد الطبيعية » . وفي كتاب مواقف حاسمة في تاريخ العلم للعالم الأمركي المعاصر رئيس جامعة هارفارد الدكتور « جيمس . كونانت » ترجمة الدكتور احمد زكي ، قال المؤلف بعنوان أصل الاحيـــاء ونشأتها : « ان الآراء التي تحاول تفسير اصل الحياة كثيرة ، ولكن كل عشرة منها بقرش » أي لا تساوي شيئاً .. وايضاً قال عن هذه الآراء : « لا أستطيع أن اسميها بأكثر من خواطر . وعلينا أن نترك الحديث عن اصل الحياة » .

وهذا العجز عن ادراك أصل الحياة هو الذي يؤكد ايماننا بانها من امر الله الذي قال : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . وعلى الرغم من ذلك قال الماديون او بعضهم : ان الحياة تنشأ وتتولد تلقائياً من المواد الجامدة ، اما لعفونتها كتولد الحشرات من القذارة ، واما لتركيب اجزاء الجسم الحي على شكل خاص كالاجهزة العامية ، وبخاصة الآلة الحاسبة .

الجواب :

١ – ان هذا القول مجرد احتمال وخواطر بلا دليل ، كما سبقت الإشارة . وفي كتاب الطبيعة وما بعد الطبيعة ليوسف كرم : « اثبت « باستور » بالتجربة القاطعة أن دودة العفونة وحشرة القذارة تتولد من جراثيم حية لا ينالها البصر المجرد ، وان كل حي فهو من حي » .. وفي كتاب الله يتجلى في عصر العلم ... ان « رسل تشارلز » قال: « جميع الجهود التي بُذلت للحصول على المادة الحية من غير الحي قد باءت بخذلان وفشل ذريعين » . وهذا يؤكد القول : ان المادة لا طاقة لها بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها اذا بلغت مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها ، وتهيأت لخدمتها مثل الجهاز الذي يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، او لتلقي الصوت والصورة .

٢ – ليست الحياة مظهراً لازماً لطبيعة المادة ، ولا هي نتيجة حتمية لتركيب الاجزاء على شكل خاص .. وإلا وجب ان لا يموت الحي نباتاً كان ام حيواناً ما دام هذا التركيب قائماً ،

لان علة الحدوث هي بالذات علة البقاء والاستمرار مع العلم بأن الحياة تفارق جسم الحي دون أي نقص او خلل في شيء من اعضائه وتركيبها .. وقد يحدث الخلل في التركيب والترتيب ، او النقص والشلل في الأعضاء ولا تزول الحياة على العكس تماماً من الجهاز العلمي الذي يتأثر ويحدث فيه التخريب لأدنى عارض يطرأ عليه .

بل شاهدنا وشاهد كثيرون كيف ينبض بعض الاعضاء بعد فصله وانتزاعه من الجسم الحي .. وفوق ذلك لا نعرف جهازاً علمياً واحداً كالانسان يحس المسموعات والمرئيات والملموسات والروائح والمذاقات ويميز بينها في آن واحد .. واذن فقياس الانسان على الجهاز الآلي قياس مع الفارق ، وللتوضيح نشير الى ما قاله الفيلسوف الشهير « راسل » حول هذا الموضوع ، ويتلخص بان الفارق الجوهري بين الاجسام الحية وغيرها من الاجهزة العلمية هو أن الاجسام الحية تقلد الغير ، وتفهم بالاشارة تلقائياً دون الآلة الصناعية .. وضرب مثلاً على ذلك بقوله : نضع القرش في الجهاز الآلي فيخرج لنا قطعة حلوى ، ولكنه لا يفعل شيئاً برؤية القرش ، أو بسماع كلمة قرش [1] .

٣ ــ اذا سلمنا ــ جدلاً ــ ان التركيب او العفونة علة الحياة فمن الذي ركب وهندس ؟ وهل العفونة وحدها سبب لتولد

(١) الفلسفة بنظرة علمية ترجمة زكي نجيب محمود .

الحياة ، أو حدث ذلك لمجرد الصدفة ؟

٤ ــ ان القول بآلية الحياة وانها من ثمرات الطبيعة ــ يستلزم القول بان العقل ايضاً من ثمرات الطبيعة ، وانه آلي لا شعوري ، يخترع ويكتب ويؤلف ويستدل ويستنبط ويتنبأ بالمستقبل ، كل ذلك وما اليه يصدر عن العقل قهراً وتلقائياً .. حتى هذا القول يجب ان يكون صادراً عن قائله بغير وعي وشعور ! .. وهل من شيء أتفه من هذا وأسخف ؟ ..

الخلاصـــة :

وبعد ، فان مملكة الحياة واسعة ومتنوعة .. منها الاعشاب والاشجار ، والطيور والاسماك ، والحشرات والجراثيم ، والحيوان والانسان ، ومنها ما لانعرف كنهه واسمه ، ولكل نوع من هذه العوالم اصناف[1] ولكل صنف افراده ، ولكل فرد ملامحه وبصماته ، وخصائصه وسماته التي لا يشابه بها احداً سواه . فهل السبب الاول والاخير لهذا التنوع هو المادة الجامدة ، او الصدفة ؟ وهل ماهية من حطم الذرة ، وقفز من الأرض الى القمر عين ماهية الصخر والحجر ؟ .. واذن لا فرق ــ على هذا ــ بين الاسد والنملة الا في الحجم والشكل ! .

(١) في مجلة عالم الفكر الكويتية ج٣ ع٤ ص ١٦ : أحصي ما يقارب من مليون نوع من الحيوانات ، وحوالي ربع مليون نوع من النباتات .. وفي كتاب الطيور لـ « روبرت لمن » ترجمة مصطفى بدران: في الطيور ثمانية آلاف او تسعة آلاف صنف متمايز علاوة على عدد كبير من انواع قريبة الشبه بها .

ان الحياة ليست بجسم ولا من جسم ، وانما هيْ روح يسكبها الخالق المبدع في الجسم الجامد الميت فينقلب خلقاً جديداً يبهر العيون ، ويذهل العقول تماماً كما بدأ سبحانه خلــق الانسان من طين ، ولما نفخ فيه من روحه اصبح الطين انساناً سوياً .. وكذلك يسكب العبقري على اللفظ الجامد من ادبه وفنه فينقلب حياً يسحرويبهر .. والخلاصة ان جوهر الحياة شيء ، وجوهر المادة شيء آخر ، ولكنهما يتفاعلان ، ويوثر كلٌ بصاحبه .

أين الذي يخلق من لا شيء :

في وقت من الاوقات أرادت جريدة « النهار » البيروتية ان تملأ صفحات الملحق الذي تصدره في كل يوم من ايام الآحاد فرغبت الى جماعـــة — وأنا منهم — ان يجيبوا عن هذا السؤال :
« اذا توصل العلم يوماً الى خلق خلية فماذا يكون مصير الله ؟ »

ولعل واضع السؤال اراد مصير الايمان بالله ، ومهما يكن فقد تطوع للاجابة كثيرون : منهم المتعلم الاصيل ، ومنهم المتطفل الدخيل .. وما وجدت من نفسي آنذاك أية رغبة في المشاركة ، والآن ، وأنا اشرح نهج البلاغة ، مررت بالاشارة الى هذا الموضوع ، فكتبت حوله ما يلي :

تقدم العلم خطوات تدعونا الى الايمان به ، ايماناً نعجز عن وصفه وتحديده .. لان ما من احد في وسعه — بالغاً ما بلغ من العلم — ان يضع معادلات يتنبأ بسببها عن كل ما يتوصل

اليه العلم من مكتشفات ومخترعات ، كيف ؟ وكلما بلغ العلم افقاً بدت له آفاق لا حد لها ولا نهاية .. انه يرى المجهول ما في ذلك ريب ، ولكنه على الدوام يرى ايضاً من خلال اكتشافاته ان ما غاب عنه اكثر بكثير مما ظهر له .. واذن فمن الجائز ان يكتشف العلماء سر الحياة ، بل من الجائز ان يخترعوا في يوم من الايام انساناً في احسن تقويم ، ولكن هذا لا يوثر اطلاقاً في ايماننا بالله حتى ولو كان الانسان المخترَع — بفتح الراء — كأرسطو في فلسفاته ، واينشتين في نظرياته ، وشكسبير في شعره ومسرحياته .. ذلك لأن العلماء لا يخترعون شيئاً — ولو كان تافهاً — الا بمعونة الاسباب التالية :

١ — ان يكون لهم عقول يخططون بها ، ويجهدونها في الروية والتفكير ، لان العقل أصل ، والعلم فرع وثمرة من ثمراته .

٢ — ان تتهيأ للعلماء المادة التي يحولونها الى انسان ، سواء أكانت جماداً أم نباتاً أم نطفة حيوان ، اذ يستحيل على العلم والعلماء ايجاد شيء من لا شيء ، وليس من شك ان المادة التي يكيفونها ويحوّلونها الى شيء آخر ليس من صنعهم .

٣ — ان تتوافر لديهم المختبرات والادوات الفنية ، لانها الوسيلة لايجاد أي شيء ، فضلاً عن ايجاد انسان بعقله وطاقاته .

هذه الاسباب او الشروط الثلاثة لا بد منها ، ولا غنى عنها لكل من حاول ويحاول غزو الطبيعة وتسخيرها لحاجة من حاجاته وغاية من غاياته .

والله الذي نؤمن به ، ونعبده غني عن كل شيء ، وكامل من كل وجه ، ولو احتاج الى شيء لاستحال ان يستقل باحداث شيء ، بل لا بد ان يستعين بغيره ، ومعنى هذا انه ناقص ومحدود ، ومفتقر الى شيء خارج عن ذاته يتم به ويكمل ، ومن البداهة ان الفقير الناقص والمحدود يستحيل ان يكون إلهاً .. ان ذات الاله الحق الذي نؤمن به — تمنح الوجود لغيرها بطبيعتها ، وبما هي بلا واسطة شيء على الاطلاق .. انها تريد فيوجد المراد بالفعل ، كما شاءت وأرادت .

ان الاله الذي نؤمن به يقول للشيء : كن فيكون . بلا جولة فكر ، ولا هندسة وتخطيط ، وعلاج آلات ، وأذرع وحركات ، واذن فايمان العارفين بالله لا يزعزعه شيء ، الا اذا استطاع العلماء ان يوجدوا شيئاً اي شيء من لا شيء ، وبمجرد ان يريدوا ايجاده بلا روية وتفكير ، وآلات ومختبرات ، وأعين وأذرع ومتى تم لهم ذلك « فأنا اول العابدين » .

وبكلام آخر يجب قبل كل شيء ان ننظر الى نفس الاله الذي آمن به من آمن ننظر الى حقيقته وهويته : فان كان من جنس طبيعة المادة المنفعلة التي لا تستقل بايجاد شيء ، او كان عبارة عن فكرة مجردة ، ونظرية ذهنية كالشرف والكرامة — مثلاً — ان كان من هذا النوع ، او ذاك يكون مصير الايمان به الى فناء وزوال لا محالة سواء اكتشف العلماء سر الحياة ، ام عجزوا عن اكتشافه ، اما اذا كان الاله المعبود هو قوة

فعالة ، لها جميع صفات الكمال من كل جهة وتؤثر ولا تتأثر ، واليها يفتقر كل شيء ولا تفتقر هي الى شيء ، وليس كمثلها شيء ، وهي المبدأ الاول للخلق والتدبير ، اما الايمان بهذا الاله فهو ارسخ من الراسيات حتى ولو اكتشف العلم سر الحياة ، واخترع الف انسان وانسان «ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

حول الاسلام

طريق المعرفة الى الاسلام :

قال لي شاب متعلم ومسلم بالأبوين: أحس من نفسي أنها تموج في الشك والحيرة من كل الأديان ، وأود لو اقتنع بالاسلام لانه دين آبائي وأجدادي .. فهل لك أن ترشدني الى ما يطمئن اليه القلب ، ويرضى به العقل الذي يشهد شهادة علم وإيقان بقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه — ٨٥ آل عمران » .

قلت له : الأمر سهل يسير اذا كنت جاداً في قصدك وعزمك ، ولم تكن امنيتك هذه مجرد بارقة مرت بخاطرك وخيالك .. ان الاسلام لا يريد من أحد أن يؤمن به عن جبر واكراه ، ولا عن جهل وتقليد ، بل عن معرفة وقناعة ، وتعقل وروية ، وحذّر من الانسياق وراء الظن ، وانكر أشد الإنكار على من يؤمن او يقول او يفعل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كما في الآية ٨ من الحج . والمراد بالعلم هنا الحس والعيان ، وبالهدى العقل والبرهان، وبالكتاب المنير الوحي

الثابت نقلاً وعقلاً .. والعقل هبة الله لعباده لينتفعوا به في كل شأن من شئونهم ، وحجته على من تصرف بالهوى ، وانحرف عن الهدى ، والعلم ثمرة العقل ، وادراك الحق والخير عمله ومهنته .

واذا قال قائل : « رب حسن عند زيد هو قبح عند بكر » قلنا في جوابه : ان جوهر العقل واحد في كل انسان شرقياً كان ام غربياً ، ومدلوله واحد حسناً كان ام قبيحاً ، والفرق انما هو في اسلوب التفكير تبعاً للبيئة والتربية .. وأياً كان نوع الاختلاف فان العقلاء بكاملهم متفقون قولاً واحداً على كثير من الحقائق، ويطلقون عليها اسم الاوليات والمسلمات والبديهيات كالبراهين الرياضية ، وما هو بمنزلتها في الوضوح والبديهة ، ومنها هذه الحقيقة : كل من شك في شيء فلا يسوغ له الحكم عليه بسلب او ايجاب الا بعد البحث والدرس ، وسلوك الطريق المؤدية الى معرفته حقاً ويقيناً .

عقيدة الاسلام واضحة :

وعقيدة الاسلام واضحة باصولها واهدافها[1] وشريعته بينة بفرائضها وسننها، أبداً لا الغاز وتعميمات غامضة في شيء من تعاليمه ومبادئه .. اما الذي جاء به فهو بشر مثلنا « يأكل الطعام ويمشي في الاسواق » وتاريخ حياته معروف لكل جيل ، وسيرته من جميع جوانبها منتشرة في شرق الارض وغربها ،

(٢) اشرت الى هذه الاهدا ف في كتاب « الاسلام بنظرة عصرية » .

وبين يدي كل طالب وراغب .

ومن أحب وأراد أن يعرف : هل الاسلام دين الحق ؟ وهل محمد جاء به من عند الله ؟ — فعليه قبل كل شيء أن يتجرد عن أية فكرة سابقة ، ثم يدرس دراسة موضوعية حياة محمد (ص) منذ نشأته الى أن لحق بالرفيق الأعلى ، أن يدرس اسلوبه في الحياة ، ومنهجه في التفكير ، وتصرفاته قبل البعثة كانسان امي عاش في بيئة الشرك والجاهلية ، ويدرس تصرفاته بعد البعثة كمنقذ للبشرية جمعاء من العماية والضلالة ، والجمود والتخلف وايضاً يدرس رسالة محمد (ص) ككل اصولاً وفروعاً ، ومدى تأثيرها في حياة الافراد والجماعات .. وليس من شك انـــه سينتهي — بوحي من دراسته هذه — الى الايمان بالاسلام ونبي الاسلام .

ومن البرهان على ذلك الذين اسلموا وآمنوا برسالة محمد قديماً وحديثاً عن هذه السبيل بالذات ، وفيهم مشاهير العلماء وكبار الفلاسفة والادباء ، وكتبوا ونشروا على الملأ : كيف آمنوا بمحمد ، واقتنعوا بأن رسالته من وحي السماء ، وتُرجمت اقوالهم الى العديد من اللغات ، منها اللغة العربية ، ووضع بعض الباحثين العرب كتباً خاصة في اسلام العديد منهم مع اقوالهم في النبي والقرآن . ومن تلك الكتب كتاب لماذا اخترنا الدين الإسلامي للرضوي ، وكتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح .. وفي كتاب التكامل لأحمد أمين العراقي ، وكتاب ما يقال عن

الإسلام للعقاد — عدد لا يستهان من هؤلاء العلماء والفلاسفة .

واذا كان المجال هنا لا يتسع للحديث الوافي برسالة الرسول وسيرته العطرة — فلا أقل من اشارة خاطفة الى شخصيته ، ومراحل دعوته ، وعمومها للناس اجمعين .. عسى ان تضيء هذه الاشارة الى بداية الطريق امام من أحب سلوكه .

شخصيتـــه :

ان شخصية الفرد لا تُفرض عليه من الخارج .. انها نفسه وحقيقته ، فإذا قيل : لا شخصية لفلان فهمنا من هذا القول أنه ليس بشيء يُذكر ، والعكس بالعكس أي إذا قيل : له شخصية كان المعنى أن له ضرباً من الوجود ، وانه أخذ من الطبيعة البشرية شيئاً من صفاتها وخصائصها .

وقد أخذ محمد (ص) من الانسانية أنبل ما فيها ، وأقصى ما يمكن أن يتصوره العقل من عظمة الانسان وكماله ، وقد أوجز سبحانه صفات نجيه بهذه الكلمة الجامعة الرائعة : « وانك لعلى خلق عظيم — ٤ القلم » . ومن هذا الخلق النبيل العظيم الصدق والامانة ، والشجاعة والإيثار ، والاعتدال في كل الامور ، فالصادق الأمين لقبه بين قومه وعارفيه ، اما ايثاره فكان ينفق على المحاويج كل ما يملك ، ولا يبقى منه لنفسه واهله الا دون الكفاف من قوت من لا يموت . ومن أقواله : « ما احب ان يكون لي مثل أحد ذهباً انفقه في سبيل الله أموت واترك منه قيراطين » .

ومن البرهان على شجاعة الرسول الاعظم (ص) قول الإمام علي (ع) : كنـا اذا احمر البأس اتقينا برسول الله ، فما يكون احـد أقرب الى العدو منه ، وكـان فحل من الابـل قد جمح وتوحش واصبح مـن الكواسر الضارية حتى فر الشجعان من امامه ، فاقتحم عليه النبي وجذبه بقوة فأخضعه وكبح جماحه ، ولم تكن قريش قد تعودت الاقدام على مثل هذا الخطر من أجل الآخرين ، ولا عرفت احداً بمثل هذا الاستبسال .

اما القصد والاعتدال فيومىء اليه قوله : « خير الأمور أوساطها .. ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه .. المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف .. اني اصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وأشد ما تمتاز به شخصية محمد (ص) الوضوح والبساطة والانسجام .. وأعلن اكثر من مرة أنه لا سلطان له على أحد ، وأن حسابه وحساب الخلائق على الله ، وانه والناس سواء امامه تعالى ، وانه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يدري ما يفعل به ، وانه لو علم الغيب لاستكثر من الخير ، وما مسه السوء .. وحين قال المسلمون : كُسفت الشمس لوفاة ولده ابراهيم — رد عليهم بقول حاسم : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات

الله لا تكسفان لموت احد من البشر » . ونُقل عن الجلندي ملك عمان أنه قال : « والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء الا كان اول تارك له ، وأنه يَغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي » .

وبعد ، فان خير ما يحدد شخصية رسول الله (ص) هذا الأثر الكبير الضخم الذي تركه ، والتحول الخطير في حياة العالم كله .. قال « د.ل ديورانت » في قصته الحضارة : « أخذ محمد على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب عاش في دياجير الهمجية .. وقد نجح في هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله ، وقد وصل الى ما يبتغيه .. وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم — ديناً سهلاً واضحاً ، وصريحاً قوامه البسالة والعزة ، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشيء دولة عظيمة ، وأن يبقى الى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في العالم » . وقـال « مونتجمري وات » في كتاب محمد في المدينة : « كلما فكرنا في تاريخ محمد تملّكنا الذهول امام عظمة مثل هذا العالم » .. ولا بدع ان لا يوازي محمداً في عظمته — احد من العالمين .. فانه سيد المرسلين وخاتم النبيين .

مراحل الدعوة :

لاقت دعوة محمد (ص) من قوى الشر والبغي — ما تلاقيه

كل دعوة اصلاحية ، ومرت مع اعدائها بالعديد من المراحل ، ولكن محمداً تخطاها جميعاً بحكمته وتدبيره ، وصبره وتخطيطه ، وهذا من اوضح الدلائل على عظمة شخصيته .

جهر بدعوة الإسلام ، فقوبل أول الأمر بالسخرية والاستهزاء ، فصبر ومضى في دعوته ، وانتشر الاسلام في مكة بين جماعة من الرجال والنساء ، فاشتد غضب الأشرار ، واجتمعت كلمتهم على إيذاء من اسلم بكل الوان التعذيب والتنكيل ، وحاولوا اغراء النبي بالملك والمال ، ولكنه رفض بحزم وصلابة ، فلجأوا الى الحصار والمضايقة ، وتعاقدوا فيما بينهم أن يقاطعوا النبي واهله والذين معه اقتصادياً واجتماعياً .. واستمر الحصار في الشعب ثلاثة اعوام حتى اشتد البلاء والجهد بالمحصورين ، وتعالت اصوات الصبيان بالبكاء ، وكانوا يأكلون ورق الشجر المر .. وروى بعض من كان مع النبي في الحصار : أنه وجد قطعة جلد جافة فبللها بالماء ، ووضعها على النار واكلها .

ورغم ذلك ازداد المؤمنون ايماناً بالله ورسوله ، وبان الحق لا بد أن ينتصر ، فعزم الطغاة على اغتيال محمد مجتمعين بضربة رجل واحد كي يتفرق دمه في القبائل .. ولكن الله سبحانه هدم بنيانهم من القواعد .. وهاجر النبي (ص) الى المدينة ، فجمعوا الجيوش له ، وأعلنوا عليه حرباً منظمة ، وظلوا يقاتلونه زهاء عشر سنين .. ورد الله الذين كفروا بغيظهم .. وبعد العجز واليأس استسلموا صاغرين .. هكذا أراد الله ، وكان له

ما أراد .. وهكذا سارت دعوة الإسلام وحياة الداعي وصحابته : ينصرون الله ، والله ينصرهم وفاء بوعده ، وعملاً بقوله : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم والذين كفروا فتعساً لهم — ٩ محمد » .

لماذا عفا محمد عن ألد اعدائه :

يبقى هذا السؤال : وماذا فعل النبي (ص) باعدائه حين تمكن من رقابهم ؟ .. وقد وجه النبي نفسه هذا السؤال الى الذين استسلموا بعد أن قاوموا وقال لهم : يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم ؟ .

قالوا :خيراً ، اخ كريم ، وابن كريم .

قال : اذهبوا فانتم الطلقاء .

ما هذا ؟ هل هو رحمة ، ام اريحية ؟ . كلا ، انه سمو المبدأ ، وشرف المقصد ، وخلق المصلح الذي لا يفعل الفعل بوحي من منافعه ، او دافع من اغراضه .. لقد أراد النبي (ص) بهذا العفو أن يُفهم الاعداء والعالم كله أنه لا يبتغي من وراء النصر على من يروم قتله وتدميره الا احقاق الحق وازهاق الباطل ، فاذا تم ذلك وتحقق فلا تشفي وشماتة ، ولا تقتيل وتنكيل .. وليس من شأنه وشيمته أن يستذل احداً حتى ولو كان ألد أعدائه ، لأن هذا الخلق لا يجتمع بحال مع نزاهة الهدف ، والاخلاص للمبدأ .. ومن هنا تجاوب مع الدعوة

والداعي كل من عرف محمداً على حقيقته ، ودرس سيرته بحثاً عن الحق لوجه الحق .

الرسالة والرسول قبل الاسلام :

اختلف القصاصون القدامى في عدد الانبياء ، فمن قائل : ثلاثمئة وثلاثة عشر نبياً ، وقائل : مئة واربعة وعشرون الفاً ، وقال آخر : مليون واربعمئة واربعة وعشرون الفاً ! .. ولا ادري : كيف تم هذا الاحصاء ، والله سبحانه يقول لنجيه : « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك — ٧٨ غافر » .. ومهما يكن فنحن غير مكلفين بالبحث عن عدد الانبياء وعدتهم ، ويكفينا الايمان على سبيل الاجمال بما جاء فيهم من آية قرآنية او سنة نبوية .

ومن تتبع آي الذكر الحكيم يجد أن رسالة كل نبي — غير محمد — تقف على قومه فحسب ، او على أهل زمانه ، ولا تتجاوزها الى جميع العالمين من بعده ، بل ان رسالة بعض الأنبياء كانت مقصورة في مضمونها على محاربة الاصنام ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، كما تومىء الآية ٨٥ من الاعراف : « والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ومثلها رسالة هود وصالح كما في الآية ٦٥ و ٧٣ من السورة نفسها .

عموم الرسالة المحمدية :

اما رسالة محمد (ص) فقد خاطبت كل انسان اينما كان ومتى يكون « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً — ١٥٨ الاعراف » .. و « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين — ١٠٧ الانبياء » . اما مبادىء رسالة محمد (ص) فانها تتسع للحياة الانسانية من شتى جوانبها ، وفي جميع مراحلها ، لأنها تلغي كل ما هو خاص بزمان او مكان ، وعنصرية او طبقية ، ولا تبقي الا النافع الصالح في كل عصر ومصر « واما ما ينفع الناس فيمكث بالارض — ١٧ الرعد » . أية ارض في الشرق ام في الغرب ، في القديم ام الحديث .

ومن البرهان على ذلك اولاً ايمان الاسلام بالعقل ، وثقته بقدرته على معرفة الحقيقة . ثانياً ايمانه بالعلم والحث على طلبه ، والتنديد بالتقليد والمتابعة العمياء . ثالثاً ايمانه بالجهد والعمل لحياة أرقى وأقوم . رابعاً ايمانه بالعدل والحرية والمساواة ، وبالثورة ضد الجهل والظلم والاستغلال ، وكل مبدأ من هذه المبادىء يُسقط ما هو خاص ، ويستبقي ما هو عام ومشاع بين كل الناس .

وايضاً من مظاهر الانسانية الشاملة في رسالة الاسلام ، الجمع بين الدنيا والدين ، وجعل الدنيا مطية للآخرة ، ووجوب الايمان بكل نبي ورسول دون فرق في ذلك بين احد منهم .. ويحمل هذا الايمان معنى عرفان الجميل لجهد كل كريم ، وايضاً

من مظاهر شمول الرسالة وجوب التعاون مع كل فئة وجهة على خدمة الانسان ومصلحته ، وقد حدد محمد (ص) رسالته وتكاملها دون سائر الرسالات ، وصوّرها بابلغ صورة واكملها حيث قال : « مثلي ومثل الانبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فانا اللبنة ، وانا خاتم النبيين » .

هذه اللبنة المكملة :

وهذه اللبنة المكملة لصرح التعاليم الانسانية ، إن هي الا كناية عن شمول الرسالة المحمدية ، وانها تتجاوب بمبادئها مع مطالب الحياة في كل العصور والامكنة ، وفي جميع الحالات تماماً كالذي يبني داراً تصلح للسكن في كل الفصول والعصور .

واذا قال قائل : ان ما يصلح لعصر مضى لا يمكن تطبيقه على عصر أتي ويأتي ، لأن كل شيء فينا وحولنا يتغير ويتحرك ، شئنا ذلك أم أبينا ، وعليه فلا يمكن بحال أن تصلح شريعة واحدة لكل الناس في كل الازمنة والامكنة ، اذا قال هذا قائل قلنا في جوابه : اولاً ان التغيير والتبديل انما هو في الافراد لا في المفاهيم . ثانياً ان الاسلام قد حث على العمل من اجل التطور والتحول ، ولكن الى الأحسن والأقوم ، كما نصت الآية ٩ من الاسراء : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » . ومعنى هذا أن الإسلام مع ما ينفع الناس في جميع الحالات ،

ومهما تغيرت الظروف والبيئات .

وليس من شك ان الأنفع والأصلح لجميع الناس لا يتحقق ولن يتحقق الا مع التعاون الشامل الكامل ، وهذا النوع من التعاون لا يتحقق الا اذا التغت جميع الحواجز والفوارق ، وامتزج الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل ، والشرق بالغرب والاسود بالابيض ، وعاش الكل تحت راية الواحد الأحد بلا شيوعية .. ولا رأسمالية .. ولا وجودية .. ولا برجماتية .. ولا صراع ومنافسة .. ابداً لا شيء الا تعاون الكل باخلاص لمصلحة الكل .. وهذا هو الأساس الذي بنى عليه الإسلام جميع احكامه وتعاليمه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ــ ٢ المائدة » .. « من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً ــ ٣٢ المائدة » .

دعوة محمد بنفسها دليل :

وبعد ، فان خير حجة وركيزة للايمان بنبوة محمد (ص) هي دعواه بالذات ، ومجرد قوله : اني لكم رسول امين .. ألم تشهد الوثائق التاريخية القاطعة بأن محمداً كان كاملاً في عقله ، وصادقاً في قوله ، واميناً على عهده ، ونزيهاً في قصده ، وعظيماً في خلقه ؟ .. واذن يستحيل أن يدعي النبوة الا اذا اقتنع ، ولا ولن يقتنع الا بالحس والتجربة ، وكفى بتجربة محمد ضماناً وبرهاناً .

وكل الناس قديماً وحديثاً يطبقون هذا المبدأ على كل دعوة مخلصة ونزيهة يدعيها عالم مجرب ، وامين متثبت .. يبحث العالم وينقب حتى اذا أدرك الحقيقة أعلنها على الناس ، فيتقبلونها شاكرين أمانة منقولة ، ويدينون بها تماماً كما تقبلوا «الجاذبية» من نيوتن، و « النسبية » من اينشتين .. ومن الفلكي والجغرافي ، وعالم الاجتماع والنفس .. ومن سيبويه ونفطويه وابن درستويه . الى غير ذلك من الآراء والمعتقدات التي نتلقاها بالتصديق عن العلماء الأمناء دون أن نجرب كما جربوا ، ونستنبط كما استنبطوا حتى ولو كان ذلك ممكناً لنا ومقدوراً .

وأختم هذا الفصل بكلمة للدكتور محمد سعاد جلال ، نشرتها جريدة الجمهورية المصرية ١٠ – ٧ – ١٩٧٣ . وهذا نصها بالحرف الواحد :

« أمعن القرآن الكريم في الاستدلال بالمصنوعات الكونية ، وظواهر الوجود المتنوعة في الارض والأنهار والنبات والسحب والأمطار ، واختلاف الألوان والألسنة والجبال والناس والانعام وغيرها ، وفي السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والمشارق والمغارب ، مما حفل القرآن بذكره وغدا يكرره ويعيد تكراره دائماً .

فلفت نظري ذلك وتساءلت : ان الاستدلال على وجود الله وحكمته وعلمه بمظاهر الموجودات ودلالتها هو قمة القمم في الفلسفة الإلهية ، والثقافة الدينية العقلانية ، وان تكرار هذا

الاستدلال بصورة تمثل نهاية الإمعان والإغراق، ان هذا ليدل على قصد مقصود ، وباعث عظيم الوعي لهذا الجانب من الاستدلال وايقاظ البصائر والابصار اليه ، ولا يكون مصادفة واتفاقاً ، وهو عمل لا يمكن أن يصدر الا عن ثقافة فلسفية ، ودراسات علمية متنوعة ، وتربية ذهنية منطقية للمستدل به ، فأين كانت نشأة محمد (ص) وتربيته من هذا الحساب كله ، وهو اليتيم الامي المنشأ في بيئة جاهلية ، وامة امية ؟

لقد كان من المستحيل على محمد (ص) ان يلتفت ذهنه بحكم بيئته ومكوناته الطبيعية وانطباعاته الاجتماعية والثقافية ، وأن يتجه وعيه الى هذا الاسلوب النادر الخفي الدقيق في الاستدلال بصورة تدل على شدة القصد وقوة الوعي ، كان من المستحيل أن يكون ذلك لو لم يكن نبياً يتلقى وحي ذلك المنهج من السماء ، من لدن رب العالمين ، فهذا المنهج من الاستدلال ، وصدوره عمن لا يملك شروطه – دليل قاطع على صدق صاحبه حينما يدعي الوحي والبلاغ عن الله رب العالمين ».

كتاب الظاهرة القرآنية

مفيد ولكن معقد :

ألف الكاتب الجزائري الشهير مالك بن نبي كتاباً في اللغة الفرنسية ، اسماه الظاهرة القرآنية ، وترجمه الى العربية الاستاذ عبد الصبور شاهين ، والهدف الاول من الكتاب اثبات نبوة محمد (ص) بمنطق الحس والعقل ، لا بالنصوص والمغيبات ، والأسرار والمعجزات .. وقد أنار الطريق لكل تائه وحائر ، وأفحم كل معاند ومكابر .

ولا عيب فيه الا الغموض والتعقيد .. انه اسلوب عتيق ، يرجع الى عصر ما قبل المطابع والجرائد ، ولو كان في اسلوب هذا العصر لكانت فائدته أكمل وأعم . وعلى سبيل المثال أذكر منه هذه العبارة : « ان انفراد النبي بكونه الشاهد الوحيد على الظاهرة يخلع على هذه الحقيقة قيمة استثنائية خاصة » . والمعنى باختصار كامل وواضح أن النبي علم الوحي بطريق الحس والمشاهدة ، وهذا الطريق يتعذر على غير الانبياء ، وعليهم ان يبحثوا عن طريق آخر لمعرفة الوحي .

ومن اجل هذا رأيت من المفيد أن اعرض بعض افكار الكتاب بإيجاز ، وبكثير من التصرف في الشكل دون المحتوى .

أزمة خطيرة :

يمر الاسلام والمسلمون الآن بأزمة خطيرة جداً .. أحدثها وأثارها عدد من شبابنا المسلم بالأبوين الذين تخرجوا من جامعات أجنبية ، وأصروا على ترديد الأفكار التي زكاها أساتذتهم من غير تمحيص وروية .. وما كان في هذا من بأس لو وقف عند الحقائق العلمية ، او التقاليد العرفية « الأتيكيت » ولكن تعداه الى الهوى والتعصب الصاخب والمتستّر بستار العلم وحرية الفكر ، وعن هذا الطريق توغل الالحاد والتشكيك في كل تراث إسلامي وعربي الى درجة كبيرة .

ومن المؤلم أن يوجد الى جانب هؤلاء جمهور ينتمي الى الدين ، وهو يحمل افكاراً خرافية ، وعقلاً مشلولاً عن كل تقدم ! مما ساعد على زعزعة الثقة في الدين وأهله .

الظاهرة الدينية :

أظهر علم الآثار أن الإيمان بالله قديم بقدم الأزمان ، فمن الكعبة الى كهوف العبادة في العصر الحجري ، ومنها الى معبد سليمان ، وعهد المعابد الفخمة ، ومن هذه المعابد أشرقت الحضارات ، وازدهرت الجامعات ، ودارت المناقشات السياسية والعلمية والفلسفية ، وايضاً كل القوانين لاهوتية في أصلها

واساسها ، اما ما يطلقون عليه اسم القانون المدني فانه ديني في جوهره ، ولا سيما في فرنسا حيث تعرف الفرنسيون على الشريعة الاسلامية اثناء حملة نابليون على مصر ، واشتقوا منها قوانينهم .

ما وراء الطبيعة :

المادة قاصرة قصوراً ذاتياً عن خلق نفسها ، وعن ايجاد نظامها وتركيبها ، لأنها عبارة عن مجرد حوادث متتابعة ، كما قال علماء الطبيعة ، وبالتالي فان المادة تعجز عن تزويدنا بنظرة علمية ، او فلسفية عن الخلق وما فيه من تطور ونظام .. واذن فمن الضروري أن نفرض وجود قوة وراء المادة ، ومتميزة عنها .. وهذه القوة وحدها هي التي تمدنا بالتفسير الصحيح لوجود الكون ونظامه ، ولكل ما تعجز العلوم الطبيعية عن تفسيره .

هذا ما يقره العقل الذي يربط المسببات باسبابها، والنتائج بمقدماتها .. اما الماديون فانهم يلجأون الى الصدفة حين يعجز العلم عن التفسير ، ومعنى هذا أن الصدفة هي الإله المعبود للماديين ، وان الله سبحانه هو إله المؤمنين .

وكلما تقدم العلم اكتشف العلماء أن وراء ملايين السنين الضوئية اشياء وحقائق يستحيل الوصول الى معرفتها بأي طريق .

وحسب المؤمن بالله ان لا يصطدم إيمانه مع مكتشفات العلم الحديث .. هذا اذا لم يُدلِ ببراهين جديدة على وجود الله ،

ويزد الأدلة القديمة قوة ووضوحاً .. والإختلال الروحي هو الذي يخلق الصراع بين العلم والدين .

مبدأ النبوة :

منذ ابراهيم الخليل الى محمد (ص) جاء انبياء كُثُر وخاطبوا الناس باسم الله الواحد الأحد ، وقالوا : انهم مرسلون من عند الله ليبلغوا كلمته الى خلقه ، كما أشارت الآية ٩ من الأحقاف : « قل ما كنت بدعاً من الرسل » . وكل ظاهرة طبيعية كانت او اجتماعية اذا تكررت واستمرت بانتظام — تعتبر شاهداً علمياً على انها حقيقة ثابتة بالضرورة ، وان لها خصائصها ومميزاتها .

واذا درسنا حياة الانبياء نجد أن من أخص خصائصهم الكمال الجسمي والعقلي والخلقي ، وان رسالة اللاحق منهم امتداد لرسالة السابق في جوهرها وهدفها ، وانهم من اجلها كانوا في صراع دائم ومرير مع قوى البغي والشر حتّى قُتل منهم العديد ، وشُرد آخرون بعد التعذيب والتنكيل .. لا لشيء الا في سبيل دعوة الخير والحق والعدل والمساواة : « كلما جاء رسول بما لا تهوى انفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون — ٧٠ المائدة » . وهذا يؤدي بنا حتماً الى الايمان بصدقهم وامانتهم ، كما هو الشأن في شهداء المبدأ والعقيدة ، لا شأن المتهوسين وارباب الأمراض النفسية .

القرآن الكريم :

يمتاز الاسلام من بين الأديان في العالم كله ـ بانه الدين الوحيد الذي ثبت كتابه السماوي منذ اللحظة الاولى لوجوده ، وتنقل طوال اربعة عشر قرناً دون أن يتعرض لأدنى تحريف او ريب ، اما التوراة فقد وُضعت بعد موسى ، والانجيل بعد عيسى بعهد طويل ، ونالتهما يد التقليم والتطعيم باعتراف الشراح والناقدين من اهل الكتابين . (انظر كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي) .. واذن فليست هناك أية مشكلة بالنسبة الى القرآن ، كما هو الأمر بالقياس الى التوراة والانجيل . وبهذا نجد تفسير الآية ٩ من الحجر : « انّا نحن نزلنا الذكر وانّا له لحافظون » .

قبل البعثة :

ان الخطوة الاولى الى الحكم بان نبوة محمد (ص) حق وصدق هي أن ندرس نفسيته من حيث عقله واخلاصه ، لأنهما الأساس الجوهري لكل دليل يمكن الاعتماد عليه في هذا الموضوع ، ولكي نخرج بنتيجة صحيحة فعلينا أن ننظر الى حياة محمد (ص) في عصر ما قبل البعثة ، ويمتد اربعين سنة ، وعصر الوحي والبعثة ، وهو عبارة عن ثلاثة وعشرين عاماً .

قضى محمد (ص) حوالي خمس سنوات في الصحراء عند مرضعته « حليمة » وكان لها مصدر خوف وسرور ، خوف عليه ، وسرور به ، وبعد قليل ماتت أمه آمنة ، فضمه جده عبد

المطلب ، وما بلغ الثامنة من عمره حتى مات جده ، فكفله عمه ابو طالب ، وقضى محمد مرحلة الشباب دون أن ينزلق في اثم او شهوة مع ان فرص الفساد كانت وافرة في مكة ، وكان في اعين قومه الصادق الامين ، وهذه شهادة تاريخية تعطينا صورة مفصلة وثمينة عن نفسيته .

وفي سن الخامسة والعشرين تزوج خديجة ، وترك هذا الزواج وثائق قيمة في سيرة محمد (ص) منها الخطبة التي ألقاها عمه ابو طالب في زواج ابن اخيه حيث قال :

« اما بعد ، فان محمداً ممن لا يوزن به فتى من قريش الا رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً ، وان كان قُلاً فان المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » .

وهذه الكلمات تصلنا تماماً بصورة الصادق الأمين ، وتتفق من كل وجه مع الصورة التاريخية لبطل أعظم ملحمة في العالم كله .

وكان محمد أمياً ، وعاش في بيئة جاهلية مشركة .. ولكنه كان حنيفاً يؤمن بإله واحد ، وقد أتاه هذا الايمان من إلهام الفطرة ، وصفاء العقل ، ومن الوراثة عن جده البعيد اسماعيل ، ولم يكن في مقدوره أن يحصل على أية معلومات من مصدر خارج ، وكان يميل الى العزلة بخاصة بعد زواجه .

ولا شيء على الاطلاق يشير ، ولو من بعيد ، الى أنه كان

يحلم ويفكر في أن يكون نبي المستقبل ، بل لدينا شاهد تاريخي غير قابل للطعن والتجريح – على أنه لم يكن لديه أدنى أمل في أن يقوم بدور النبي ، وهو قوله تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب – ٨٦ القصص » . وهـــذه الآية صورة صحيحة وصادقة لحالة النفس عند محمد أيام غار حراء ، واذن فليس هناك من سبب لأن ينسب الى الصادق نية مبيتة لدعوة النبوة ، كما زعم بعض المستشرقين والمبشرين ضد الاسلام .

والخلاصة ان جميع صفات محمد (ص) واحواله قبل البعثة كانت ترشحه للرسالة الإلهية ، ولكل ما حدث بعد البعثة دون أن يشعر هو بذلك .

وقد علم الله والناس هذه الصفات الجلى من الصادق الامين وسجل سبحانه ذلك في كتابه العزيز بقوله : « الله اعلم حيث يجعل رسالته – ١٢٤ الانعام » .. وقوله : « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون – ١٦ يونس » .

بعد البعثة :

وجاءت سيرة محمد (ص) بعد البعثة امتداداً لسيرته قبلها كمالاً في العقل والإدراك ، وعظمة في الصفات والأخلاق ، ذلك هو الأساس والخط العريض لأقواله وافعاله في شتى مراحل حياته ، وكل ما في الأمر أنه اختفى من مسرح التاريخ قبل البعثة ، وظهر بعدها كالشمس في وضح النهار .

ومرّ محمد (ص) بفترة عصيبة ، وشمله الهم والألم بعد أن أتم الأربعين من عمره الشريف ، ذلك أنه سمع صوتاً يناديه ويقول له : « يا محمد انت رسول الله حقاً .. اقرأ » . فوقف حائراً لهذه المفاجأة ، وهب كأنما مسته الحمى ، وفكر ملياً : من اين جاء هذا الصوت ؟ وهل مجرد سماعه كاف للتصديق ؟ .

ابداً .. لا يأخذ محمد بالشبهة ، ولا يجزم باللمحة ، ولا يثق الا بالحجة البالغة والبراهين القاطعة ، كما هو شأن كل عظيم يسيطر على ذاته ، ويقدر كل خطوة من خطواته بخاصة اذا كان الأمين على التنزيل . ولكن الصوت يعاوده ويتكرر .. ثم يظهر له جبريل على هيئة رجل ، ويستيقن النبي ، ويخشع قلبه ، وتزول الريبة والحيرة .. قال اهل التفسير : حين نزلت هذه الآية « فان كنت في شك ممـــا انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين – ٩٤ يونس » فعقب النبي عليها وقال : لا أسأل ولا أشك .

ولا شك أن هذا الاقتناع واليقين برهان مباشر على نبوة محمد ، لأنه لم يحدث عن حدس ووهم ، بل عن حس وعلم .. على أن هذا الدليل يصحبه دلائل كثيرة ، منها الدليل التالي :

اعجاز القرآن :

« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من

مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ــ ٢٣ البقرة » .

وما ذكر التاريخ أن احداً قد أجاب عن هذا التحدي ، ومعنى ذلك أن اعجاز القرآن الأدبي قد أفحم فعلاً عبقرية ذاك العصر .. هذا ملخص ما قاله علماء المسلمين .

ولكن لدينا دليل آخر ، وهو أن النفس البدوية طروب في جوهرها ، وقد تجلى ذلك في تعبير موسيقي موزون هو بيت الشعر الذي استوحاه العرب من خطوة الجمـــل القصيرة او الطويلة ، والقرآن الكريم عبّر عن هذه النفس البدوية الطروب بصورة جديدة ، وهي النثر القرآني الذي أقصى الشعر وأبقى الوزن والموسيقى .. وهنا يكمن سر الإعجاز الأدبي[1] . وبه يفسر قول الوليد بن المغيرة : « والله لقد سمعت كلاماً لا هو من كلام الانس ولا الجن .. وانه يعلو ولا يُعلى عليه » . وهناك العديد من الشواهد على ان كثيراً من بلغاء العرب تحولوا من الشرك الى الاسلام بفعل هذا التأثير .

هذا من حيث الشكل ، اما من حيث المضمون فإن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد فهو يبدأ حديثه من الذرة في الصخرة ، وفي الارض ، وفي السماء ، كما في الآية

---

(١) ايضاً نحن لدينا وجه آخر اشرنا اليه في ج ٥ من التفسير الكاشف ص ٤٣٧ ، ويتلخص بان اسلوب الكلام فيه روح المتكلم ، والله سبحانه ليس كمثله شيء فكذلك كلامه .

١٦ من سورة لقمان ، ثم يتحدث عن النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم ، وعن الكون وما وراءه ، وعـــن الانسان والأديان والعادات والاخلاق والتشريـــع ، والأمم الماضية ، والقرون الخالية .. الى كثير .. وامام هذا المشهد العظيم وقف الفيلسوف « توماس كارليل » وصرخ من اعماقه صرخة الإعجاب وقال : « هذا القرآن صدى متفجر من قلب الكون نفسه » .

فهل كان عند محمد علم الكون وكل ما في القرآن من علم ، ثم جمعه في كتاب كما يفعل المؤلفون والمصنفون ؟ .. كلا ، ان عبقرية الانسان مهما بلغت من العظمة فانها تحمل بالضرورة طابع الارض ، وتخضع لقانون الزمان والمكان ، بينما يتخطى القرآن دائماً هذا القانون .. وفضلاً عن ذلك لو كان القرآن من عند محمد (ص) لتحدث فيه كثيراً عن نفسه ، وعن النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه ابي طالب ، وزوجته خديجة ، وقد كان حتى آخر لحظة من حياته يبكيهما بخاصة اذا ذكر اسم احدهما امامه ، ورغم هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن .

هل اخذ محمد من التوراة والانجيل ؟

وقال قائل : ان محمداً تلقى تعليماً شخصياً ومباشراً عن التوراة والانجيل ! . ونقول في جوابه : « اولاً ان الدكتور بشر فارس تساءل في احدى الدراسات : هل الاسلام من صنع اليهود والنصارى ؟ ثم أجاب بان الأب لامانس المعروف بعدائه

للاسلام قد نفى ذلك .

ثانياً : لم يكن في عهد الرسول (ص) أية ترجمة عربية للتوراة او الانجيل ، ولا كان محمد (ص) او غيره من أهل مكة يتقن اللغة العبرية [١] .

ثالثاً : ان القرآن تحدى اليهود فيما دار بينهم وبين محمد (ص) وقال لهم : « فأتوا بالتوراة ان كنتم صادقين — ٩٣ آل عمران » . وايضاً تحدى اهل الكتاب بوجه عام في الآية ١٥٧ من الصافات « .. فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين » .

فاين مكان الدلالة على السرقات والفلتات ؟ .. أجل ، أخذ القرآن من التوراة هذه الآية التي رسمت لليهود هذه الصورة « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت اولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل — ٦٠ البقرة » وايضاً أخذ القرآن من الانجيل هذه الآية : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة — ٧٣ المائدة » .. « يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون ، يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون — ٧١ آل عمران».

* * *

(١) والى هذا تشير الآية ١٠٣ من النحل : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

باقة من حديقة الرسول الاعظم

ربما كان الداء دواء :

شعرت منذ ايام بالملل والعزوف عن القراءة والكتابة .. ولكني حرت في أمري وتساءلت : بماذا ألهو وأسد الفراغ ؟ .. وأين هو المحدث اللبق ، او المستمع الفهيم ؟ .. والمشكلة أن الكتاب والقلم هما متعتي الوحيدة ، ومهنتي الأولى والأخيرة ، فإذا تعذرا فما عسى أن يبقى ؟ وأجاب الامام علي (ع) عن هذا السؤال بقوله : « ربما كان الدواء داء ، والداء دواء » . ونظم أبو نواس هذه الحكمة فقال : « وداوني بالتي كانت هي الداء » . واذن لا طريق الى الخلاص الا بالقلم او الكتاب ، واخترت القراءة لأنها أيسر مؤونة ، واكثر متعة .

ولكن ماذا أقرأ ، ولا جديد عليّ في مكتبتي ؟ وهل أعيد واكرر ما سبق ؟ كيف وانا هارب من السآمة والملالة .. وبلا شرح طويل أو قصير فقد دبرها سبحانه بلطفه ، وألهمني الى السيرة النيرة العطرة ، سيرة المصطفى والرسول المجتبى .. وما ان قرأت اول سطر وقعت عيني عليه حتى عبقت رائحة النبوة ،

وهبت أنسامها في قلبي فأحيته وأنعشته .. وأقف هنا عند الباقة التالية من حديقة الرسول الأعظم .

من خلاله الجلى :

كان النبي أول من يجوع وآخر من يشبع ، وكان في طعامه لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً وما عاب طعاماً قط واذا لم يجده صبر حتى انه ليربط حجر المجاعة على بطنه ، وصلى مرة وهو جالس من شدة الجوع ، وتوفي ودرعه مرهونة هذا ، وثروة جزيرة العرب طوع بنانه ، ولكن ما دام فيها جائع واحد فعلى ولي الأمر أن يساويه في البأساء والضراء والا كان مغتصباً لحقه ومعتدياً عليه .

وكان يحب النظافة وحسن المظهر ، وكان اكثر الناس ابتساماً ، ولا يتكلم الا فيما رجا ثوابه من الله ، وما ذم أحداً ، او عيّره بشيء او طلب له عثرة وعورة ، ولا سأله احد حاجة الا ورجع بها او بميسور من القول ، وكان يصبر على جفوة السائل ، ولا يقبل ثناء الا من مكافىء ، ولا يقطع على احد كلامه الا اذا تجاوز فينهاه او يقوم ، واذا دخل على قوم قعد حيث ينتهي به المكان ، ويعطي كل جليس حقه ، بل ما جالس أحداً الا وحسب انه اكرم الناس عليه ، واذا بلغه عن احد ما يكره فلا يسميه، ويكتفي بقوله: ما بال اقوام يفعلون كذاوكيت.
لا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان فيها ، فاذا اعتدي على الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، يُحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهنه .

يضحك للنكتة :

كان نعيمان الأنصاري يمارس الدعابة ، وكان النبي يبتسم كلما رآه ، وفي ذات يوم جاء اعرابي الى النبي ، فدخل المسجد وترك ناقته بالقرب منه .. فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نحرتها ، فقد مضى علينا أمد لم نذق فيه اللحم ، والنبي يدفع ثمنها للاعرابي ، فبادر نعيمان ونحرها ، ثم اطلق ساقيه مع الريح ، ولما خرج الاعرابي ذهل مما رأى بناقته ، وصاح: واعقراه يا محمد .

فخرج يسأل : ما الخبر ؟ قالوا : نعيمان فعل ما ترى يا رسول الله ، فأمر بالبحث عنه ، وكان قد اختبأ في خندق ، فأخرجوه ، وجيء به . فقال له النبي : ما حملك على هذا ؟ قال : الذين وشوا بي هم اغروني يا رسول الله فضحك النبي ، ودفع ثمن الناقة .

وكان نعيمان يشتري الأطعمة والفاكهة ، ويأتي بها الى النبي ويقول له : كل يا رسول الله ، هي هدية مني اليك ، واذا طالب صاحب السلعة نعيمان أخذه الى النبي وقال له : اعطه ثمن متاعه . فيقول له النبي : ألم تهده لنا ؟ فيقول له نعيمان : بلى ، ولكن انت الذي أكلته ، وليس انا ، فيضحك النبي ، ويدفع الثمن .

وقبّل رجل امرأة أجنبية كانت مارة في طريقها ، فشكته الى النبي . ولما سأله اعترف وقال : مرها يا رسول الله أن تقتص

مني . فتبسم النبي وقال : استغفر الله ، ولا تعد الى مثلها . فقال : لن اعود يا رسول الله ، فتجاوز عنه[1] .

وقال له اعرابي : بلغنا ان الدجال يأتي الناس بالثريد ، وقد هلكوا جوعاً ، أترى أن اكف تعففاً واموت جوعاً ؟ فضحك النبي وقال : يغنيك الله بما يغني المؤمنين . وجاءه رجل من الصحابة وقال له : هلكت يا رسول الله . فقال له : وما اهلكك؟ قال : وقعت على اهلي في رمضان . قال : هل تجد رقبة تعتقها ؟ قال : لا . قال : هل تستطيع اطعام ستين مسكيناً ؟ قال : لا . فجاء النبي بوعاء من تمر وقال : تصدق به . قال : والله ما على وجه الارض من أهل بيت أحوج منا . فضحك النبي وقال : اطعمه اهلك .. وهكذا فاز الرجل باللذتين .

أعداؤه :

كان الصدق والاخلاص عدة النبي ودرعه الواقية ، وكان يقاوم قوى العتو والبغي بالصبر والاحتمال ، والثقة بالله والحق .. وقالت له زوجته خديجة ، وهي اعرف الناس به : « والله لا يخزيك الله ابداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على النوائب » .

واذا رآه اعرابي قال : ما هذا الوجه وجه كذاب .. ولكن اعداءه قالوا : هو ساحر ، لأنه أتى بما عجزوا عن الاتيان

(1) بحار الانوار ج ٦ بعنوان مزاحه وضحكه .

بمثله ، وقالوا : مجنون ، لانه سفه عقولهم ، وقالوا : كاهن ، لأنه أخبر بالغيب .. وسرعان ما افتضحوا باكاذيبهم واضاليلهم واستسلموا للحق صاغرين .

كان النبي يوماً في المسجد ، والصحابة من حوله ، يحدثهم ويستمعون اليه ، فقال لهم من جملة ما قال : سيدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، وما أتم كلامه حتى دخل رجل من سائر الناس لا أحد يعرف له سابقة تذكر ، فتعجب الصحابة وتساءلوا في انفسهم : ما الذي رفع هذا الشخص على سواه ؟ وبأي شيء استحق هذه المنزلة والشهادة من رسول الله ؟

فتقصى عبد الله بن عمر اخباره ، وظل يراقبه أياماً عسى ان يهتدي الى طريقه فيسلكه .. ولكن ما وجده اكثر عبادة وعلماً ، ولا جهاداً وكرماً من أي رجل من الصحابة ، فذهل واستولت عليه الحيرة، وقال للرجل: ان رسول الله أخبرنا أنك من اهل الجنة ، وما رأيت منك ما تمتاز به عمن سواك ، فما هو السر ؟

قال الرجل : ابداً لا سر ولا شيء وراء ما رأيت .. أجل اني لا احقد على أحد ، ولا أحسد احداً على خير اعطاه الله له . قال ابن عمر : هنا يكمن السر .

أجل ، هذا هو ثمن الجنة في رسالة محمد (ص) : ان لا تحقد وتحسد ، لا تُملق وتنافق ، لا تشمت بالمصيبة ، وتحسد على النعمة .. اما العبادة فالحكمة منها التذكير بالله ، والاستعداد

التام لطاعته ، والكف عن معصيته ، وما عُصي الله بشيء مثل الإساءة الى عباد الله وعياله . وفي الحديث : ان النبي قال لابي ذر : كف اذاك عن الناس فانه صدقة عن نفسك . وقال الامام امير المؤمنين (ع) : « بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد .. اسوأ الناس حالاً من لا يثق باحد لسوء ظنه ، ولم يثق به أحد لسوء فعله » .

محو الأمية :

أول آية نزلت على رسول الله « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وقضى النبي في أسرى بدر أن يطلق كل أسير يُعلّم عشراً من صبيان المسلمين ، ومن الاسس الاسلامية واصولها وجوب التعليم والتعلم ، ومن أهمل وقصر استحق اللوم والعقاب [1]

وكان في قبيلة الأشعريين فقهاء ، ولكنهم كانوا لا ينفرون الى من حولهم من القبائل ليفقهوهم في الدين .. فخطب النبي (ص) الناس وقال غاضباً : ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ويعلمونهم ؟ وما بال اقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون وعرف الأشعريون أن النبي يقصدهم بقوله : « لا يفقهون جيرانهم » فقالوا : يا رسول الله لقد ذكرتنا بشر : قال :

---

(١) أهملت الدول الاسلامية هذا المبدأ وهو من صميم الاسلام على رغم ماتملك من ثروات وطاقات ، ولاهمال هذا الاصل بالخصوص ، وغيره على العموم تأخر المسلمون عن ركب الحياة . وتسلط عليهم شر أهل الارض الصهيونية والاستعمار .

ليعلمن قوم جيرانهم ، او لأعجلنهم بالعقوبة في الدنيا .. وأياً كان راوي هذا الحديث فنحن لا نشك في صدقه ، لأنه قائم على اساس صلب ومتين في مكافحة الجهل والأمية .

القرآن يأسر القلب والعقل :

كان ثمامة بن اثال يعتز برياسته على قومه بني حنيفة ، وكان يشتط ويفرط في عدائه للاسلام ونبيه .. يؤلب عليه ، ويسعى لقتله بكل سبيل ، وكان النبي يدعو ربه بان يمكنه من ثمامة .. وقد استجاب سبحانه دعاء نجيه ، وجيء بثمامة اسيراً إلى رسول الله ، فأمر بحبسه في المسجد ، ووكل به بعض الصحابة ، وكان النبي اذا دخل المسجد يؤم المسلمين في الصلاة — يقترب من ثمامة ويقول له : مالك يا ثمامة ؟ فيجيب : قد كان ذلك يا محمد .. ان تقتل فان ورائي قوماً ، وان تعف ، تعف عن شاكر ، وان طلبت مالاً حملته اليك . وتكرر السؤال من النبي كل يوم ، والجواب واحد من ثمامة .

وكان النبي في كل مرة يوصي بثمامة ، وينصرف الى الصلاة ، ويتلو من أي الذكر الحكيم ، والمسلمون خلفه يركعون ويسجدون ، يستوي بينهم الصغير والكبير ، والغني والفقير ، وبعد الصلاة يتحلقون حول النبي يستمعون اليه بقلوبهم وعقولهم راجين خاشعين ، كل ذلك وثمامة يسمع ويرى ويعجب من هذه الوحدة والالفة ، وهذه الروح القدسية التي تسيطر على الجميع ، وكيف يساوي الدين الجديد بين الناس جميعاً لا سيد

ومسود ، ولا نسب وحسب ، ولا جاه وثراء .. وايضاً يدهش ثمامة من حفاوة الصحابة بالنبي ، وحبهم له ، يفتدونه بالمهج والارواح . والآباء والابناء ! .. وفوق ذلك كان ثمامة مأخوذاً بسحر القرآن واعجازه ناسياً قومه واهله ، وذله واسره ، ولم يعد يشعر بشيء الا بعظمة الاسلام ونبي الاسلام وصحابته .

فحاسب نفسه ، وندم على ما فات ، وتمنى لو كان قد سبق الى الاسلام ، وجاهد اعداءه بالنفس والنفيس ، اما الآن فلا يتبع محمداً من موقف الأسر والضعف خوفاً من العار ، وأن يقال : ما اسلم بل استسلم حرصاً على حشاشته .. وقرأ النبي ما في نفس ثمامة فقال له : مالك ؟ فأبى أن يلين وهو اسير وقال : ان تقتل فان ورائي قوماً . فقال النبي : بل عفوت عنك . فقال ثمامة : اما الآن فاشهد أن لا اله الا الله ، وانك رسول الله .

كيف تحول ثمامة ، وانتقل بما يشبه الطفرة من العداء الى الولاء ، ومن الكفر الى الايمان ؟ انها لظاهرة فريدة للوهلة الأولى ، ولكن اذا تأملنا قليلاً اتضح السبب وزال العجب :. ان الحق بطبعه يأسر القلب والعقل الا ان يحول دونه حائل من الهوى والجهل .. والحائل العارض يزول لسبب او لآخر .. وما تنكر ثمامة للاسلام ومحمد (ص) الا للجهل وتضليل الدعايات الكاذبة ، وبعد أن شاهد ورأى ظهر الحق ، وأثر أثره واسر قلبه تلقائياً ومن غير قصد ، وصدق عليه قول الامام امير المؤمنين (ع) : « ما جالس القرآن أحد الا قام عنه

بزيادة في هدى ، او نقصان في عمى .. فانه شفاء من اكبر داء ، وهو الكفر والنفاق ، والعمى والضلال » . وقال من ينطق بلغة الوحي : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، واصاب منها طائفة أخرى ، انما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ » .

الرفق بالحيوان :

كان صلى الله عليه وآله يسقي الهرة بيده ، ويميل لها الإناء لتشرب ، ورأى جملاً هزيلاً فقال : اتقوا الله في هذه البهائم اطعموها واركبوها صالحة ، ورأى فرخ طائر في يد رجل وأمه تحوم حوله وترفرف فغضب وقال : اردد اليها ولدها .

ومرت به شاة ، وهو يأكل الرطب فاشار اليها بالنوى ، فدنت واطعمها بيده ، ورأى كلبة مع صغارها فأمر برعايتها .. وعلق الكاتب الانكليزي مونتجمري على هذه الحادثة في كتاب محمد — يقول : « هذا شيء رائع في ذلك العصر » .

ومن احاديثه : « الرفق يمن ، والخرق شؤم .. ان الله رفيق يحب الرفيق .. لكم في كل كبد أجر .. المثلة حرام حتى بالكلب العقور .. ان للدابة على صاحبها ست خصال : يعلفها اذا نزل عنها ، ويعرض عليها الماء اذامر بـه ، ولا يضرب وجهها ، ولا يقف على ظهرها ، ولا يحملها فوق طاقتها ، ولا

يكلفها من المشي ما لا تستطيع .. رب دابة مركوبة خير من راكبها ».
وهكذا يحرم الاسلام أذى كل ذي نفس انساناً كان ام حيواناً .

وكان النبي (ص) يوصي زوجته خديجة أن تعامل جواريها كما لو كنّ حرائر ، وان تسمي من تملك الفتيان والفتيات بدلاً من كلمة الجواري والعبيد .

وكان يشعر بحنان خاص نحو الاطفال ، فاذا مرّ بصبية ابتسم لهم واقرأهم السلام، وتحدث اليهم وقال : خيركم خيركم لأهله ، ولما أصيب زيد بن حارثة ذهب الى بيته فبكت ابنته ، فبكى . وفي ذات يوم مرّ بصبي فرآه حزيناً ، ولما سأله عن السبب قال: ان بلبله قد مات . فعزاه وخفف عنه .. ومن احاديثه : « من كان له صبي فليستصب له » . أي يعامله كمثيل ونظير .

الفراسة :

كان اذا سأل النبي سائل تفرس في وجهه ، ثم يجيبه بما يتناسب مع حاله ، ومن امثلة ذلك ان رجلاً قال له : اوصني يا رسول الله . فقال له : لا تغضب ، فكرر السؤال ، ولكن الجواب لم يختلف.. ثم تبين ان السائل يثور لأتفه الاسباب .
وقال له آخر : أي الاسلام خير ؟ فقال له : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه . وجاء آخر وقال : أي الاسلام خير ؟ فقال له : تطعم الطعام ، وتقري السلام على من تعرف .. واخيراً ظهر أن الاول كان يعيب الناس، والثاني كان شحيحاً .

وبعد ، أليست هذه الصفات آيات ودلائل على نبــوة صاحبها ورسالته؟ .

حول البعث

لكل ناكث شبهة :

تعلق من انكر البعث بشبهتين : الأولى : انه غير ممكن ، لأن من مات فات ، وكيف تحيا العظام ، وهي رميم ؟

الشبهة الثانية : مع التسليم جدلاً بان البعث ممكن فانه غير واقع حيث لم نجد له أي أثر يدل عليه – مثلاً – تنظر العين الى الكون وإتقانه فيحكم العقل بوجود المكون والمتقن كما هو شأنه دائماً في الانتقال من الشاهد الى الغائب استناداً لمبدأ العلية .. وايضاً نقرأ سيرة محمد (ص) ورسالته فنعتقد بصدقه وعظمته .. اما البعث فلا نحس له من أثر ، او نسمع له صوتاً فكيف يسوغ الايمان به ؟ .

ومن هنا اهتدى خلق كثير الى الايمان بالله دون البعث ، بل ان اكثر المشركين او الكثير منهم رفضوا دعوة محمد وقاوموها لا لشيء الا لأنها جمعت بين الايمان بالله واليوم الآخر ، وكانوا على أتم الاستعداد للتصديق برسول الله لو أعفاهم من البعث ، ويومىء الى ذلك عدد من الآيات ، منها : « وقالوا أإذا

كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً — ٤٩ الاسراء » .
وجاء احد المشركين الى النبي بعظمة بالية وفتها بيده ، ونثرها في الهواء ، ثم سأل النبي ساخراً : من يحيي العظام وهي رميم ؟ فنزلت الآية ٧٩ من يس : « قل يحييها الذي أنشأها اول مرة » ولم تك شيئاً من قبل .

الاجابة عن الشبهتين :

وعن الشبهة الأولى نجيب بأن العلماء والفلاسفة فرقوا بين القانون الطبيعي والقانون العقلي وقالوا : القانون العقلي يطرد حتماً ، ولا يمكن خرقه بحال مثل الواحد نصف الاثنين ، والمساوين لثالث متساويان ، اما القانون الطبيعي فلا ضرورة تحتم اطراده على كل حال في نظر العقل ، ويجوز حدوث الخوارق والمعجزات في نواميس الطبيعة ، ولا يسوغ لأي عاقل أن يقول : هذا مستحيل عقلاً لمن حدّث وقال : كانت النار برداً وسلاماً على فلان ، او قال : توقفت الأرض عن الدوران حول الشمس في حين من الاحيان .. اجل . له كل الحق ان يطالبه بالاثبات ودليل الوقوع ، اما دعوى الامتناع عقلاً فلا اساس لها على الاطلاق .

واذا أجاز العقل خرق القوانين الطبيعية فبالأولى أن يجيز إعادة الحياة بعد الموت ، اذ هي أهون وأيسر ، غاية الأمر أنها تخالف العرف والعادة .. وليس اكثر من الشواهد على تغيير المعتاد والمعروف ، ومنها الصعود على القمر .. وربما كان

لا شيء بالقياس الى الآتي .

ونجيب عن الشبهة الثانية بأن الإسلام لم يوجب البعث لمجرد البعث وكفى ، وإنما اوجبه لهدف الحساب والجزاء على فعل الخير والشر ، ومعنى هذا ان البعث نتيجة حتمية للعدالة الإلهية لا لقانون الطبيعة ونظامها كيما يُرى ويُحس .. وايضاً معنى هذا أن الايمان بالبعث يرتبط حتماً بالايمان بالله وعدله وحكمته وانه لا حجة بدليل البعث على من كفر بالله ، بل يحتج عليه بالدليل القاطع على وجوده تعالى .. فالى هناك .

وتسأل : وأية علاقة بين عدالته تعالى وبين البعث ؟

الجواب :

لا يستقيم ابداً مع العدل الإلهي ان يستوي مصير المجرمين والأبرياء ، فيذهب هؤلاء بلا ثواب ، وأولئك بلا عقاب .

سؤال ثان : أجل ، ولكن لماذا لا يكون الجزاء في الحياة الدنيا ؟ .

والجواب واضح ، لأنه تعالى لو عجل الجزاء لعباده ، او كشف لهم عنه — لكان ، جلت صفاته ، كالمعز الفاطمي حين دعا الكبراء وسل السيف بيد وقال : هذا نسبي ، ونثر الذهب بيد وقال : هذا حسبي . فقالوا جميعاً : سمعنا وأطعنا ! ان الله سبحانه يثيب ويعاقب ، ما في ذلك ريب ، ولكن بعد أن تظهر الأفعال بالارادة والاختيار ، لا بالضغط او بالرشوة .

الدليل الأصيل :

ومما تقدم يتبين معنا أن الذين كذبوا بالبعث لا يعتمدون على اساس سوى الجهل او العناد تماماً كمن كذّب برحلات الفضاء في باديء الأمر.. اما الدليل الأصيل على وقوع البعث وحدوثه فيتلخص بأن البعث ممكن بحكم العقل ، وثابت بصحيح النقل عن المعصوم فيجب التصديق .

وهذا الدليل –كما ترى– يعتمد على العقل والنقل حيث لا شيء غيرهما من قبل ، اما الآن ، وقد تطور العلم ووسائله الحسية ، فان الناس سوف يشاهدون لا محالة الروح بعد فراقها للجسد تماماً كما شاهدوا الانسان على القمر .. وكل من يؤمن بالعلم يتحتّم عليه أن يثق بذلك من غير تردد .. ولو ان العلماء الذين انصرفوا بكل طاقاتهم لدراسة العالم المادي ، اهتموا بعض الاهتمام بعالم الروح –لوضعوا ايديهم منذ زمان على هذه الحقيقة، على ان التباشير بدأت الآن بالظهور ، ولله الحمد .

فقد نشرت جريدة الاخبار المصرية ٢٨/ ٦/ ١٩٦٣ مقالاً بعنوان عصر الفضاء ام عصر الروح ؟ للاستاذ عبد السلام داود ، جاء فيه : « لقد نجحت البحوث العلمية في تصوير خروج الروح من الجسد بأشعة غير منظورة ، واستخدام ألواحٍ حساسة خاصة .. والذي تتبع تطور البحث العلمي في ميدان الروح ، لا بد أن يقتنع بأننا اوشكنا أن نضع ايدينا على الحقيقة.. ان كل ما ابدعه الخالق في هذا الكون ليس سوى وسيلة للتدليل

على وجوده ، وحثنا على التفكير فيما وراءه ، لأن من طبيعة هذا الكون عدم الاستمرار . ان كل الماديات مصيرها الى التحول .. ولا يعقل أن يكون الله قد خلق لنا هذا العقل لنرى جزءاً مما ابدعه ، ولفترة قصيرة هي عمر الانسان ، فيكون مثلنا في ذلك مثل النبات » .

ونشرت جريدة الجمهورية المصرية ١٩/ ١٢/ ١٩٧٢ :
« ان الطبيب السويدي يلنز ظهر له اخيراً في دسلدورف كتاب بعنوان الحياة بعد الموت أكد فيه أن هذه الحياة كانت تبدو وكأنها حلم ، ولكن التشابه كبير بين الحياة قبل الموت وبعده .. حتى ان الميت لا يحس ان الروح قد خرجت من جسده ، بل يعتقد أنه ما زال يعيش » .

من كتاب يوم القيامة :

ألّف الاستاذ عبد الرزاق نوفل كتاباً اسماه يوم القيامة ، وفيه خمسة فصول ، اربعة منها من التراث الذي قرأناه او سمعناه ، وفصل واحد وليد هذا العصر وابن العلم الحديث ، وهو فصل « من الموت حتى يوم القيامة » حيث ذكر فيه آخر ما وصل اليه العلم عن الحياة بعد الموت ، وأنه لأخطر من الصعود الى المريخ والقمر ، فقد أثبت حقيقة كان يراها اكثر الناس من الخرافات والأساطير ، ونوجزها فيما يلي بشيء من التصرف في الشكل دون المحتوى – أهم ما جاء في كتاب يوم القيامة :

لقد اكتشف علماء الطبيعة والتشريح أن لكل عضو وجهاز في جسم الانسان خلاياه الحية الخاصة به ، وان جميع الخلايا بشتى انواعها تموت بموت الانسان ما عدا خلايا الجهاز العصبي فانها تبقى حية بعد موته مهما طرأ على الجسم ، وأنه عن طريقها يحس الميت ويشعر بما حوله ، ولكنه لا يستطيع الحركة والحديث ، لان الخلايا التي كان يتحرك ويتكلم بواسطتها ماتت بكاملها . وبكلمة تموت كل الخلايا الا خلايا الشعور .

وهذا يفسر عذاب القبر .. وايضاً يفسر ما تواتر على لسان أهل التاريخ والسير : ان الرسول الاعظم (ص) خاطب القتلى من كفار قريش يوم بدر ، وناداهم بأسمائهم قائلاً : « قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟. فقيل له : أتناديهم يا رسول الله وهم اموات ؟ فقال : والذي نفسي بيده انهم لأسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب » . وقرأت في قصة الفلسفة تأليف ول. ديورانت « ان النملة الاسترالية اذا انقسمت الى قسمين تبدأ المعركة بين الرأس والذنب وقد تدوم نصف ساعة ، ثم يموتان معاً او تسحبهما بقية النمل » .

تاريخ فكرة الخلود :

تدل الاخبار وبقايا الآثار أن فكرة الخلود قديمة بقدم الانسان ، فقد كانت معروفة في الديانة الفرعونية والفارسية ،

اما الفلسفة اليونانية فيقول استاذها الشهير افلاطون : لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الأشرار ، وكان القرد أفضل من الانسان .

ومن قبله قال الفيلسوف اليوناني فيثاغورس : ان النفس الطاهرة تسكن بعد الموت في المكان اللائق بها ، وتصحب معها جانباً من الجسد الذي كانت تحتله في الحياة الدنيا ، وهو لطيف مهذب من كل ثقل وكدر .

ويلتقي هذا مع ما رواه الشيخ البهائي في كتاب الاربعين حديثاً ص ١٩٠ — عن الامام جعفر الصادق (ع) وهذا نص الرواية بالحرف : « اذا قبض الله ارواح المؤمنين صيرها في قالب كقالبها في الدنيا ، فيأكلون ويشربون ويتعارفون » .

طريق الجنـــة :

حدد القرآن طريق الجنة بالايمان والعمل الصالح في العديد من آياته . وجاء التحديد في بعض الآيات بكلمة واحدة « وأزلفنا الجنة للمتقين — ٩٠ الشعراء » والمراد بالمتقين الذين عناهـم سبحانه في هذه الآية : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون — ١١١ التوبة » .. والآية ١٤٢ من آل عمران : « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »

وقال الرسول الأعظم (ص) : « أقرب الناس اليّ مجلساً

يوم القيامة احاسنكم اخلاقاً » . وقال : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً الى الجنة » . ولا خُلق اكرم واحسن من الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله .. اما العلم فليس المراد به هنا حفظ المتون ، وفهم الشروح والحواشي . بل المراد ما يترك شيئاً جديداً ومفيداً لبني الانسان .. وعليه فأي معبد لا يتجه بالعابد الى العلم والعمل النافع — فما هـــو بالطريق المؤدي الى الجنة، وأي مصنع او مختبر ينفع الناس بجهة من الجهات فهو طريق الفوز بالجنة ، والنجاة من النار .

وختاماً نسجل هذه الحكمة البالغة « من اكله الحق فالى الجنة ، ومن اكله الباطل فالى النار ». و « اكله » الاولى تعني التضحية بالنفس والمال في سبيل الله ، و « اكله » الثانية تعني الخسران في طاعة الشيطان كمن أتلف ماله في الفسوق والفجور ، او قتل نفسه مع قائد ضَلّ وضُلّ به .. وهذه الحكمة القيمة الغالية للامام امير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ، ورضي عنه ، وكرم وجهه الذي ادركته بركة سيد الكونين صلى الله عليه وآله حين دعا له بقوله : « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » .

بدعة التعصب والاجتهاد في مورد النص

الاجتهـــاد

يتلخص الاجتهاد في الفقه بأنه استخراج الفرع الشرعي من أصله ، والاستدلال عليه بدليله ، وأوضح مثال على ذلك — لمجرد التوضيح — قصة عمر بن الخطاب والمرأة حين اراد أن يجعل للمهر حداً أعلى ، فعارضته وقالت : ليس ذلك لك يا عمر ، لأن الله يقول : «وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً — ٢٠ النساء » فكان قولها بدليل ، وقوله بلا دليل . بل اجتهاد في مورد النص باعترافه حيث قال : أصابت امرأة ، واخطأ عمـــر .

البـــدعة

البدعة في الدين إحداث ما ليس له أصل في الشريعة ، وهي بهذا المعنى من كبائر المحرمات اجماعاً وعقلاً وشرعاً ، قال الرسول الاعظم (ص) : كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة سبيلها الى النار .. اذا رأيتم أهل البدع من بعدي فاظهروا البراءة منهم .. من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه .

التعصب

التعصب من العصبية ، وهي الميل الى الجانب الذي تحب ، وان كان على خطأ وضلال ، والجور على الجانب الذي تكره ، وان كان على حق وصواب .

وبعد هذا التمهيد نشير فيما يأتي الى قول من اتهم الدين بالتعصب ، والى اول من ابتدع القتل والقتال بين الصحابة ، ومهد السبيل لما حدث من الفتن بين المسلمين ، وكان السبب الموجب لفتح باب الاجتهاد في مورد النص ، والتحايل على دين الله ، وما الى ذلك مما يجري به القلم .

الدين وماركس وراسل

قال الفيلسوف الانكليزي الشهير راسل : أباح الدين التعصب والبغضاء وكرسهما . (كتاب راسل يتحدث عن مشاكل العصر) . وهذا القول يشبه الى حد كبير قول ماركس : الدين افيون الشعوب[1] .

وفي ظني أن راسل وماركس أرادا بكلمة الدين هنا اليهودية والمسيحية فقط دون الاسلام ، لأن نصوص القرآن والسنة النبوية تنكر التعصب وتعده من كبائر السيئات ، وتأمر بالاعتماد على العلم ، والاحتكام الى العقل ، وتعتبر إهماله

(١) القى الفيلسوف الفرنسي « روجيه جارودي » محاضرة في القاهرة بدار الاهرام ، نشرتها مجلة الطليعة المصرية بتاريخ آذار ١٩٧٠ ، وجاء فيها أن هذه الكلمة قالها ماركس في اول كتاب له ، وكان عمره آنذاك ٢٥ سنة ، وأنه لم يرددها بعد ذلك .

وعدم الركون اليه جريمة تستحق العقاب والتوبيخ .. ومعنى هذا أن أي مسلم لا ينظر بعقله وبصيرته ، او يتعصب لهواه وعشيرته فهو منابذ لدينه ، والحجة قائمة عليه من كتاب الله وسنة نبيه .

اليهودية والمسيحية والتعصب

التعصب عند اليهود دين وعقيدة ، لأنهم – كما يزعمون – شعب الله المختار بنص التوراة ، فهو سبحانه لهم وحدهم ، ولا يعنيه من شيء في السماء والأرض سوى مشكلاتهم (انظر سفر التثنية الاصحاح ٦ فقرة ٦) . وكفى دليلاً على تعصب المسيحية ما سجله التاريخ من فجائع الكنيسة في القرون الوسطى .

وتسأل : لماذا نسبت عصبية من تعصب من المسلمين الى ذاته ومعاندته لدينه ، لا الى الاسلام ، ونسبت عصبية من تعصب من المسيحيين الى المسيحية لا الى ذات المتعصب ومعاندته لدينه ، مع العلم بأن انجيل متى يقول في الاصحاح ٥ فقرة ٤٣ : « احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم »؟. أليس هذا تحيز منك وتعصب ؟.

الجـــواب :

لقد نص القرآن الكريم صراحة على حرمة التعصب – كما سيأتي – وايضاً نص على ان الحرام ما حرم الله ، والحلال ما أحل الله ، وما لأحد من خلقه أن يُشرّع من عنده ، ويحكم

بغير ما انزل الله . قال سبحانه : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون ــ ١٦٦ المائدة » . وقال : « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ــ ٥٩ » .

اما انجيل متى الذي يقول : احبوا اعداءكم الخ فانه قال ايضاً لرجال الكنيسة : «كل ما تربطونه في الارض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه في الارض يكون محلولاً في السماء ــ الاصحاح ١٨ فقرة ١٨ » . ومعنى هذا أن الديانة المسيحية تؤخذ من رجال الكنيسة لا من الاناجيل فقط .. وكذلك الديانة اليهودية تؤخذ من رجال البِيْع لا من التوراة وحدها ، فقد جاء في سفر اشعيا الاصحاح ٢ فقرة ٣ « من صهيون تخرج الشريعة ، ومن اورشليم كلمة الرب » . على العكس تماماً مما جاء في القرآن الكريم الذي قال لمحمد (ص) : « ليس لك من الأمر شيء ــ ١٢٨ آل عمران » .. « قل ان الامر كله لله ــ ١٥٤ آل عمران » .. «ويكون الدين كله لله ــ ٣٩ الانفال » .

فيتو الكنيسة ضد الانجيل

كان المسيحيون يلعنون اليهود في كل صلواتهم ، لأنهم السبب الأول لصلب السيد المسيح ، كما يزعمون ، وفي سنة ١٩٦٥ حصل اليهود على وثيقة بابا روما بتبرئة اليهود من دم المسيح .. وهذه الوثيقة تعارض نصاً صريحاً في انجيل متى الاصحاح ١٧ فقرة ٢٦ ، وهي « ان دم المسيح على اليهود

واولادهم » ومع ذلك وافق الكاثوليك والبروتستانت على وثيقة البابا وباركوها وتركوا لعن اليهود في صلواتهم !.. ومعنى هذا أن للكنيسة كل الحق في استعمال الفيتو ضد الانجيل ، فتنسخ منه ما تشاء حين تريد .

ومن طريف ما قرأت حول هذه التبرئة ما نشرته جريدة الاخبار المصرية تاريخ ٩/ ٧/ ١٩٧٢ : ان محامياً يهودياً أصر على بقاء لعن اليهود ، واستأنف الحكم بتبرئتهم من دم المسيح بزعم ان لعن النصارى شرف كبير لمن يلعنوه ، ولكن المحكمة التي استؤنف اليها الحكم رفضت دعوى المحامي اليهودي ، لانها قضية تاريخية ، وليس لها اطراف متخاصمة .

وعلى اية حال فقد اتضح مع الايام أن الهدف من هذه التبرئة هو دعم الصهيونية واسرائيل لكي تحقق أطماعها على حساب العرب والمسلمين.. ولا ضير اطلاقاً في اعتداء اسرائيل على المقدسات المسيحية في فلسطين ما دامت الصهيونية في طريقها لايجاد الدولة التي نصت عليها التوراة ، وحددتها من النيل الى الفرات في سفر التكوين الاصحاح ١٥ فقرة ١٨ .

كل هذا وغيره كثير يدل على ان الانجيل الموجود الآن يجيز لرجال الكنيسة أن يتجاوزوا أي نص من نصوصه . اما القرآن الكريم فقد أعلن بوضوح بقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ــ ٩ الحجر » .. « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ــ ٤٢ فصلت » .

الاسلام والتعصب

سبق ان اشرنا الى ان نصوص القرآن والسنة النبوية تنهى عن التعصب ، وتأمر بالاحتكام الى العقل ، ونذكر الآن امثلة من هذه النصوص .. قال سبحانه في الآية ١٥٢ من الانعام : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » والمراد بالقول هنا مـــا يشمل كل قول حتى الحكم بالاعدام والشهادة المؤدية اليه . وفي الآية ٨ من الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » أي الذين ينصفون الناس من انفسهم ، ويثق المحق باخلاصهم ، ويخشى المبطل من عدلهم .

وقال الرسول الاعظم (ص) : « ايها الناس ربكم واحد ، وابوكم واحد ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب » وما دام مصدر الكل ومعدنهم واحد فما هو المبرر للعصبية ؟ واين الفوارق التي تفصل وتميز بين القرشي والحبشي ، والعدناني والقحطاني ، والآري والسامي ؟. وايضاً قال : « من تعصب فقد خلع ربقة الايمان من عنقه » . ومعنى هذا في ظاهره ان التعصب كفر وارتداد .

من البادىء بتفريق المسلمين ؟

كان الصحابة بعد رسول الله (ص) يبذلون المهج والارواح من أجل مصلحة الاسلام ومقدساته ، ولا يشهر واحد منهم السيف على اخيه أياً كانت الاسباب حتى ولو تنافسوا على الرياسة

والخلافة .. ابداً لا يلقون بأسهم الا على اعداء التوحيد وعصابة الشرك والالحاد .

واول من خرج على هذا المبدأ القرآني ، وفتح باب القتل والقتال بين الصحابة انفسهم هما طلحة والزبير في وقعـــة الجمل .. وقد دفع العالم الاسلامي الثمن فادحاً لهذه الوقعة الميشومة .

واليك بعض آثارها واسواءها :

١ ــ جرأت معاوية أن ينازع الامام الخلافة ، ويحشد الجيوش لحربه في صفين ، وتمخضت هذه الحرب عن وقعة النهـــروان .

٢ ــ فرقت المسلمين الى شيع وطوائف : طائفة تقول : كلا الفريقين كافر ، وثانية : كلاهما فاسق ، وثالثة : كلاهما تأوّل فأخطأ ، ورابعة : احدهما فاسق والآخر مؤمن ، وخامسة أرجأت وأمسكت عن القول .

٣ ــ فتحت وقعة الجمل الباب لبدعة الاجتهاد في مورد النص ، والتحايل على حلال الله وحرامه .. قال رسول الله (ص) : عمار تقتله الفئة الباغية[١] والزبير يقاتل علياً ، وهو له ظالم[٢] . وقال المبتدعون : كلا ، ما بغى من قتل عماراً ، ولا

(١) صحيح البخاري كتاب الصلاة .
(٢) الاصابة لابن حجر .

ظلم من قاتل علياً ، بل اجتهد فأخطأ ، والمجتهد المخطىء مغفور له ومأجـــور !.

وهذا الاجتهاد الماكر الخادع هو الذي اغرى شيخاً من مشاهير المذهب الحنفي ، يدعى الكرخي ، وجرأه ان يقول : كل آية في القرآن، او رواية عن رسول الله (ص) تخالف ما قرره مذهب ابي حنيفة فهي مؤلة او منسوخة . (انظر تفسير المنار للآية ١٦٧ من البقرة . وكتاب ما لا يجوز فيه الخلاف لوزير الازهر الشيخ عبد العزيز عيسى الفصل الثامن) وعلق المؤلف على هذه البدعة بقوله : « يا لله للمسلمين !.. أليس معنى هذا أن قول علماء الاحناف هو المتحكم والمهيمن على كتاب الله وسنة نبيه ، فإن امكن تأويلهما وموافقتهما لمذهب ابي حنيفة فذاك والا حكم عليهما بالاعدام » أي النسخ .

وهذا الاشكال وارد على كل من اجتهد في مورد النص ، ولكنه يرد ايضاً على جميع المذاهب الأربعة ، لأنها تعتمد بكاملها على القياس ، وان اختلفت في استعماله سعة وضيقاً ، وهو كما حددوه يؤول الى اثبات النص في مورد عدم النص ونسبته الى النبي مع علمهم بأنه سكت عنه ، وهذا اعظم من الاجتهاد في مورد النص .. واختصاراً ان السنة سدوا باب الاجتهاد في استخراج الحكم من النص الثابت ، وفتحوا باب الاجتهاد في اثبات النص حيث لا نص .

الخلفاء وبعض الفقهاء

٤ ـ ان الخلفاء وبعض الفقهاء رأوا في تلك البدع سابقة

من سنة الاولين يقتدون بها في التحايل على الدين . وتكييفه طبقاً لأهوائهم واغراضهم .. وعلى سبيل المثال نذكر الحادثة التالية :

قال ابن خلكان في « وفيات الاعيان » وهو يترجم للقاضي ابي يوسف صاحب ابي حنيفة : ان هارون الرشيد أحب جارية عيسى بن جعفر ، فسأله هبتها او بيعها فأبى وقال : حلفت بالطلاق والعتاق وصدقة جميع ما أملك إن بعتها او وهبتها ، فطلب الرشيد من ابي يوسف أن يوجد له حلاً شرعياً لهذه المعضلة . فقال ابو يوسف لعيسى هبه نصفها وبعه نصفها ، ولا حنث في ذلك ، لأنك ما بعتها كلها ، ولا وهبتها كلها ! .

ففعل عيسى ، وحملت الجارية الى الرشيد ، وهو في مجلسه ، فقال الرشيد لابي يوسف بقيت واحدة . قال ابو يوسف ما هي ؟ قال : انها جارية ولا بد أن تستبريء بحيضة ، واذا لم ابت معها ليلي هذا خرجت نفسي . فقال ابو يوسف : اعتقها فتصبح حرة ، واعقد عليها بعد العتق فان الحرة لا تستبريء . فأعتقها الرشيد ، وعقد له عليها ابو يوسف ، وقبض مئتي الف .

كل هذا العبث في الدين ، واكثر من هذا كان يحدث في المجتمع الاسلامي بعد تلك السابقة التي ابتدعها المجتهدون في مورد النص لتبرير الخروج على الامام ، وحشد الجيوش لحربه في البصرة وصفين .

أمثلة من التعصب المذهبي

والآن وبعد أن عرضنا بعض الامثلة من بدعة الاجتهاد في مورد النص ــ نعرض امثلة من التعصب المذهبي . قال احمد تيمور في كتاب المذاهب الاربعة ص ٤٩ طبعة ١٩٦٥ : جاء في معجم ياقوت أن أهل الري كانوا ثلاثة طوائف : شيعة وحنفية وشافعية ، فتضافرت الطائفتان الاخيرتان على الشيعة فأفنوهم ، ثم قامت الحرب بين الشافعية والحنفية فكان الظفر لأولئك على هؤلاء ، وخربت محال الشيعة والحنفية ، وبقيت محلة الشافعية .

وقال الشيخ عبد العزيز عيسى في كتاب ما لا يجوز فيه الخلاف ، الفصل الثامن : سئل بعض فقهاء الشافعية عن حكم الطعام الذي وقعت فيه قطرة نبيذ ؟ فقال : يُرمى لكلب او حنفي ! لأن الحنفية يقولون بطهارة النبيذ ، والشافعية بنجاسته .

وسئل بعض فقهاء الحنفية عن زواج حنفي بشافعية ؟. فقال يجوز الزواج بها ، لا على انها مؤمنة ، بل قياساً على الزواج باليهودية والنصارية .

وايضاً نقل الشيخ عبد العزيز عيسى في كتابه المذكور أن حنفياً وشافعياً كانا يصليان جماعة ، فقرأ الشافعي الفاتحة ، ولما سمعه الحنفي ضربه ضربة قوية على صدره وقع منها على ظهره حتى كاد يموت ، لا لشيء الا لأن الحنفية لا يتابعون الامام في قراءة الفاتحة .

المتعة وشيخ أزهري

وحدثني أخ كريم أنه اجتمع بشيخ من كبار علماء الأزهر ومشاهيرها ، وعندما عرف أني شيعي قال ، بحدة كادت تخرجه عن رشده : الشيعة يجيزون زواج المتعة ، والزنا خير منها وافضل !.

ولا أدري لماذا نسي هذا الشيخ او تناسى مشكلة الالحاد وإعراض الناس عن الدين والقيم ، ومشكلة قوى الشر واسلحتها المدمرة ، ومشكلة التفرقة العنصرية والصهيونية ووجود اسرائيل على الخريطة ، وغيرها من المشكلات والويلات ، نسي كل ذلك ، وما تذكر وذكر الا المتعة حتى كأنها مركز الثقل من التوتر الذي يسود العالم في شرقه وغربه !.. وايضاً لا ادري كيف اطلق الحكم بالزنا على المتعة من غير تحفظ وتردد مع العلم بأن كل من ابطل المتعة من فقهاء السنة ادخلها في باب الشبهة والجهل بالتحريم ؟.

واذا كان غضب الشيخ لدين الله ، وحافزه الغيرة على الشريعة فكان عليه أن ينسجم مع دينه وضميره ، وينكر ما جاء في فقه مذاهب السنة من احكام تمجها الاسماع والافئدة ، وتسيء الى الاسلام وشريعته ، وفيما يلي نعرض طرفاً منها على سبيل التمثيل .

استاجر امرأة للزنا

جاء في ميزان الشعراني ، باب الزنا ، ما نصه بالحرف

الواحد: « اتفق الأئمة على ان من استأجر امرأة ليزني بها ففعل فعليه الحد الا ما يحكى عن ابي حنيفة من قوله : لا حد عليه » ونقل الغزالي هذا القول عن ابي حنيفة في كتاب المنخول ص . ٥٠٢ طبعة اولى ، وعلق عليه بقوله : « ومن يبغي البغاء — أي الزنا بمومسة — كيف يعجز عن استئجارها ؟ ومن عذيرنا ممن يفعل ذلك ؟.

ونعلق عليه نحن بأن كل ما يحرم فعله يحرم بيعه وشراؤه وايجاره كتاباً وسنة واجماعاً وعقلاً .

الزنا وشهادة الزور

وايضاً نقل الغزالي في كتاب المنخول ص ٥٠٣ والقرافي في كتاب الفروق ج ٤ ص ٣١ طبعة ١٣٤٦ هـ وابن همام الحنفي في فتح القدير ج ٢ ص ٣٨٩ وابن قدامة في كتاب المغنى ج ٩ ص ٥٩ طبعة سنة ١٣٦٧ هـ نقلوا عن ابي حنيفة : انه قال : لو أن رجلين تعمدا شهادة الزور على رجل انه طلق امرأته ، وفرق القاضي بينهما اعتماداً على الشهادة الكاذبة — لجاز لأحد الشاهدين الكاذبين العالم بتعمده الكذب ان يتزوجها .

وايضاً نقل صاحب المغني عن ابي حنيفة : لو ان رجلاً ادعى كاذباً ان فلانة زوجته ، واقام شاهدي زور فحكم القاضي بالزواج فحلت له وصارت زوجتــه ، وكذا لو ان امرأة استأجرت شاهدي زور بأن زوجها طلقها ، وحكم القاضي بالطلاق — لحل لها ان تتزوج بمن تشاء !.

وأصاغر الطلبة يعرفون أن ما بني على الفاسد فهو فاسد .. واذا سقط الاصل سقط الفرع .

إلحاق الولد بغير أبيه

قال ابو يوسف تلميذ ابي حنيفة في كتاب اختلاف ابي حنيفة وابن ابي ليلى ص ١٨٣ طبعة اولى : اذا غاب الزوج عن زوجته ، ثم نُعي اليها فاعتدت وتزوجت برجل آخر ، ورزق منها اولاد ، ثم جاء زوجها الأول — فالأولاد كلهم للأول الذي كان غائباً وبحكم الميت .

وفي كتاب الاحوال الشخصية لمحمد محيى الدين عبد الحميد ص ٤٧١ طبعة سنة ١٤٩٢ — أن ابا حنيفة قال : لو وكّل رجل في مصر رجلاً في الاندلس بأن يزوجه فلانة ، فعقد له عليها ، ولم يلتقيا أصلاً ، ثم تجيء بولد بعد العقد ينسب الولد لزوجها المقيم في مصر !.

يا سبحان الله ! إلحاق الولد بغير أبيه شرع ودين ، وحكم القاضي اعتماداً على الزور حق وعدل ، ومجرد الاستئجار على الزنا يحلل الحرام ، اما العقد على المرأة الخلية بمهر وأجل فأشد من الزنا !.. ومرة ثانية يا سبحان الله !.

زواج المتعة والزواج الموقت

وبهذه المناسبة نشير الى أن جماعة من فقهاء السنة يفرقون بين زواج المتعة والزواج الموقت من أوجه ثــلاثة : الاول

ان المتعة لا تكون الا بلفظ متعت ، والموقت يكون بلفظ الزواج. الثاني ان المتعة لا تحتاج الى شهود ، وهم شرط في الموقت. الثالث ان تعيين الوقت شرط في المتعة وليس بشرط في الموقت بل يجوز بمجرد كلمة « وقت او زمن او اجل » من غير تعيين. وقال بعض فقهاء الحنفية : في الزواج الموقت يبطل الأجل ويصح العقد. وقال جمهور السنة : لا فرق من حيث فساد العقد وبطلانه بين المتعة والموقت [1].

وقال الشيعة : المتعة كالزواج الدائم في خلو المرأة من الزواج والعدة ، وفي إلحاق الولد بأمه وابيه ، ووجوب اصل العدة بعد انتهاء المدة ، والعقد المشتمل على الايجاب والقبول. والفرق أن المتعة تقع بلفظ متعت او زوجت او انكحت فقط لا غير ، اما الزواج الدائم فلا يقع الا بزوجت او انكحت ولا يصح بمتعت وحدها ولا بد من تعيين الاجل وتحديده في المتعة دون الزواج الدائم ، وايضاً ذكر المهر ركن فيها دونه .. وليس للمتمتع بها نفقة ولا ارث الا مع الشرط ، وللدائم النفقة والارث حتى مع شرط عدمهما. والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها كتاب فقه الامام جعفر الصادق (ع).

صلاة الشيطان

سؤال آخر نوجهه الى الشيخ الازهري الذي قال : الزنا

(١) الاحوال الشخصية لمحمد محيي الدين ، والاحوال الشخصية لأبي زهرة.

خير من المتعة ، ونطلب منه الجواب. فقد اشتهر عن ابي حنيفة ان من أدى الصلاة الواجبة على الصورة التالية فقد اطاع الله ، وسقط عنه الوجوب ، وهي :

ان يغمس الانسان جسمه في برميل من نبيذ ، ويلبس جلد كلب مدبوغ [1] ويدخل في الصلاة بلا نية ، ويكبر تكبيرة الاحرام بالهندية او بأية لغة غير عربية ، ويقرأ في الصلاة مدهامتان بلا فاتحة [2] ثم يترك الركوع المطمئن المستقر [3] ثم يُحدث عمداً — أي يخرج الريح من بطنه — بلا تسليم في آخر الصلاة.

وسئلت اكثر من مرة عن هذه الصلاة وصحة نسبتها الى ابي حنيفة ؟ ومن الذي ذكرها ؟ وفي أي كتاب ؟ وكنت أجيب بأن أجزاء هذه الصلاة واركانها موجودة في فقه السنة ، ولكنها ذكرت اشتاتاً وفي مسائل متفرقة .. ثم رأيتها ملمومة ومجموعة

(١) في بداية المجتهد لابن رشد أن أبا حنيفة أجاز الوضوء بنبيذ التمر ، وقال بطهارة جلد الكلب المدبوغ.

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٢ ص ٣٨٤ طبعة سنة ١٩٥٩ باب وجوب القراءة للامام والمأموم : ان الفاتحة واجبة في الصلاة عند الحنفية ، ولكن من تركها عمداً تصح صلاته ، ولا تجب الإعادة عليه ، وإنما يأثم فقط .. ثم قال ابن حجر : ان بعض الاحناف يترك الفاتحة في صلاته عمداً ويتقصد الإثم لا لشيء الا مبالغة في مخالفة مذهب الغير اي الشافعي.

(٣) في كتاب الفقه على المذاهب الاربعة : أن الركوع عند الحنفية يحصل بطأطأة الرأس بأن ينحني انحناء يكون الى الركوع اقرب ! وليس من شك أن القريب او الشبيه بالركوع ليس بركوع.

في كتاب المنخول للغزالي ص ٥٠١ طبعة أولى – على الشكل التـــالي :

« اذا عُرض اقل صلاته – اي صلاة ابي حنيفة – على عامي جلف امتنع عن تقليده واتباعه ، فان من انغمس في مستنقع نبيذ ،فخرج في جلد كلب مدبوغ ولم ينو ، ويحرم في الصلاة مبدلا صيغة التكبير بترجمته تركياً او هندياً ، ويقتصر في قراءة القرآن على مدهامتان ، ثم يترك الركوع ، وينقر نقرتين لا قعود بينهما، ولا يقرأ التشهد ، ثم يحدث عمداً في آخر صلاته بدل التسليم ، ولو انفلتت منه بأن سبقه الحدث يعيد الوضوء في اثنـــاء صلاته ، ويحدث بعده عمداً ، فانه لم يكن قاصداً في حدثه الأول – تحلل من صلاته على الصحة » .

وعلق الغزالي على ذلك بقوله : « والذي ينبغي ان يقطع به كل ذي لب أن مثل هذه الصلاة لا يبعث الله لها نبياً ، وما بعث الله محمداً (ص) ليدعو الناس الى مثل هذه الصلاة ، وهي قطب الاسلام وعماد الدين » .

واكرر ثانية وثالثة لماذا يتناسى المتعصبون هذه العورات في مذهبهم ، ويقيمون الكون على رؤوس الشيعة من اجل المتعة ، وهي لا تخلو من احد فرضين : اما زواج شرعي كما يقول الشيعة ، واما شبهة بلا إثم كما يقول السنة ، أو تقول مبادئهم وقواعدهم .

لكل رأيه وعذره

من المتفق عليه والمقطوع به عند السنّة والشيعة أن النبي (ص) أجاز المتعة وأباحها ، ثم اختلفوا في النسخ فقال السنة : ثبت عندنا برواية الثقات أن النبي (ص) نسخها وحرمها بعد أن أحلها وأذن بها .. فقال لهم الشيعة : لكم رأيكم وعذركم في ذلك ما دام راوي النسخ مقبولاً ومعتمداً عندكم .. والفقيه المحقق المتثبت هو الذي يفحص ويبحث جاهداً عن النص ، ويعمل به بعد أن تثبت أمانة الراوي عنده لا عند غيره .

ونحن الشيعة قد فحصنا وبحثنا جاهدين عن النسخ فلم نعثر له على عين ولا أثر في النقل الموثوق الامين عندنا .. ومن البداهة بمكان أنه لا يجوز القول بنسخ الحكم الثابت عندنا قطعاً وباتفاق المسلمين جميعاً الا اذا تجلى ذلك بوضوح كامل ، لأن ما ثبت باليقين لا يرتفع ويزول الا بيقين مثله عند من ايقن بالثبوت لا عند غيره كما اشرنا ، ولو قلنا بالنسخ ؛ والحال هذه ، لكنا ممن يحلل حرام الله من غير دليل – ما زال للكلام للشيعة – واذن فتكليفنا الشرعي هو ابقاء ما كان على ما كان ما دام لم يثبت العكس ، ولا عذر لنا عند الله اطلاقاً لو قلنا بالنسخ .. فلماذا لا يعذرنا اخواننا السنة كما عذرناهم ؟ وهل يرتاب أحد أن النسخ لو لم يثبت عند السنة لقالوا بقول الشيعة ، وانه لو ثبت عند الشيعة لقالوا بقول السنة ؟ .

وبعد ، فقد كنت في غنى عن هذا النقض والجدل لولا ذاك الازهري العجوز ومن على شاكلته الذين يُلجئون الآخرين للرد عليهم خوفاً من وباء التقليد الاعمى ، وانتشار المحاكاة للجهل والتعصب الذي يبدد الشمل ويُشل العزم في وقت نحن احوج الى العمل يداً واحدة وقلباً واحداً لتحقيق ما نصبوا جميعاً اليه .

مشكلات نهج البلاغـــة

مسحة إلهية وعبقة نبوية :

قرأت اكثر من كتاب في مشكل القرآن ، وغريب الحديث وعلومهما ومجازاتهما ، وما رأيت كتاباً واحداً أفرد بتأويل المشكلات في نهج البلاغة مع ان فيه العديد من المتشابهات التي يدور حولها التساؤل ، ويكثر الجدال والنقاش .

واذا لم يكن « النهج » وحياً فان صاحبه ربيب الوحي وكاتبه ، واخو الرسول وبقية النبوة ، وأدركته دعوة النبي الاعظم (ص) حين قال : « اللهم اهدِ قلب علي ، وثبت لسانه » . وقال الشريف الرضي : « ان كلام الامام عليه مسحة العلم الإلهي ، وفيه عبقة من كلام النبوة » . وقال الشيخ الدكتور احمد الشرباصي في مجلة الهلال ، شهر ايلول سنة ١٩٧٣ : « اذا كان الامام قد نثر المئات من كلماته ، وجعل كل حكمة منها تسير بين المشرق والمغرب مسير المثل الشرود ، فانه في بعض الاحيان يجمع المجموعة من كلماته الحكمية في عقد واحد ينتظمها كلمة بجوار كلمة » .

ونعرض في هذا الفصل طرفاً من مشكلات النهج ، عسى

أن يكون حافزاً لعالم بياني قدير ، على أن يؤلف كتاباً خاصاً بهذا الموضوع الذي ينطوي على أدق الحقائق وأعمقها .

وحدة الذات والصفات :

قال الامام (ع) في أول خطبة من خطب النهج : « وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه » سبحانه وتعالى .. وهنا سؤال يفرض نفسه ، ويخطر في بال أي قاريء ، وهو كيف يكون الايمان بالله كاملاً وخالصاً لوجهه الكريم بنفي الصفات عنه ، وهو جلت كلمته قد نعت نفسه بالعديد من الصفات ، كالرحمن الرحيم ، والقدير العليم ، والغفور الودود .. وايضاً وصفه الراسخون في العلم بكل كمال وجلال حتى كلام الامام متخم بالنعوت الإلهية والصفات القدسية ؟.

الجـــواب :

الصفات بما هو على نوعين : الأول وصف الشيء بحقيقته وطبيعته بحيث يكون الوصف تكراراً وبياناً لذات الموصوف بلا زيادة عليها ، كوصف الانسان بالانسانية ، فان هذا الوصف غير منفصل عن طبيعة الموصوف ، ولا يضيف اليها شيئاً لا نعرفه مـــن قبل .

النوع الثاني وصف الشيء بما هو خارج عن ذاته وحقيقته وزائد عليها ، كوصف الانسان بالعلم ، فان حقيقة العلم الكشف عن الواقع ، وحقيقة الانسان الحيوان الناطق ، كما هو

شائع ، فاذا وصفنا الانسان بالعلم فقد أضفنا اليه جديداً وزائداً على ذاته وهويته .

والامام اراد بنفي الصفات عن الله النوع الثاني أي الخارجة عن الذات والزائدة عليها .. وان الصفات الايجابية الثبوتيةالتي وصف الله بها ذاته القدسية كالعلم والقدرة هي من النوع الأول ، لأنه تبارك وتعالى واجب الوجود ، وواحد أحد ، ومنزه عن الأعراض والحوادث . ولا بد من مراعاة هذه الاصول والحرص عليها في كل ما ينسب اليه سبحانه ، فاذا نسب اليه ما يتنافى مع الوجوب او التوحيد او التنزيه بوجه من الوجوه — كانت النسبة كذباً وافتراء عليه تعالى .. مثلاً اذا وصفت الله بالعلم على انه عين ذاته لا غيرها ولا زائد عليها فهذا الوصف حق وصدق ، لأنه ينسجم تماماً مع الوجوب والتوحيد والتنزيه ، اما اذا وصفته بالعلم على انه غير الذات الواجبة الواحدة المنزهة وزائد عليها — فالوصف زور وبهتان لأن المغاير الزائد على الذات ان كان واجب الوجود لزم تعدد الواجب وهو عين الشرك ، وان كان ممكناً لا واجباً لزم ان يكون علمـــه تعالى بالاكتساب لا بالذات تماماً كعلم المخلوقين ، وان تكون ذاته القدسية محلا للاعراض والاحداث ، وكلا الفرضين باطل من الاساس ، لأن الأول ضد التوحيد ، والثاني ضد الوجوب والتنزيه .

التجارة بالصدقة :

قال الامام في الحكمة رقم ١٣٦ مـــن حكم النهج :

« واستنزلوا الرزق بالصدقة » . وفي معناها الحكمة ٢٥٧ : « إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة ». وقال الشيخ محمد عبده في تعليقه على هذه الحكمة : « وهاهنا سر لا يعلم » .

وذلك ان ظاهر الكلام يدل على ان الصدقة تدرّ الرزق تماماً كالكدح والسعي الدائب ، او أنفع وأعود ! . وهذا بعيد عن قضايا الحياة والخبرة الحسية ، ولو كان من واقع الحياة الدنيا وحقيقة ملموسة — لما وجد بخيل وفقير .

الجواب :

١ — أجل ، ان التجربة لا تثبت ذلك ، واذن ليس من قصد الامام (ع) أن الصدقة وسيلة للرزق على سبيل الحتم والضرورة ، بل القصد ان للصدقة بعض التأثير في ذلك كعناية الله تعالى وهدايته الى السعي الناجح ، والعمل الذي يثمر الرزق .

٢ — ان الخطاب في « استنزلوا وتاجروا » غير موجه للفقراء كيف وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ . وانما المراد به الاغنياء الذين يبخلون بأموالهم ، ولا ينفقونها في سبيل الله خوفاً من الفقر ، وعليه يكون المعنى المراد من تاجروا الله بالصدقة ونحوه هو عين المراد من الآية ٢٦٨ من البقرة ، او يومىء اليه ، وهي «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً» . والمراد بالفضل هنا الغنى في مقابل الفقر الذي وعدهم به الشيطان .

الثقة بالله :

قال الامام (ع) في الرسالة ٢٦ من رسائل النهج : « فان العبد انما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه من ربه ، وان احسن الناس ظناً بالله اشدهم خوفاً من الله » .

وتسأل : ان حسن الظن معناه الثقة ، وهي تستدعي الأمان . والخوف ضد الامان ، فكيف يكون أحسن الناس ظناً بالله اشدهم خوفاً منه ؟ . وما هو القاسم المشترك والقدر الجامع بين الماء والنار ؟ . وأوضح مثال لحسن الظن بالله رواية تقول : « ان أعرابياً سأل النبي (ص) : من يلي حساب الخلق يوم القيامة ؟ . فقال النبي : الله عز وجل . فقال الاعرابي : هو نفسه ؟ قال النبي : نعم . فتبسم الاعرابي . ولما سأله النبي عن ذلك قال : ان الكريم اذا قدر عفا ، واذا حاسب سمح . قال النبي : لا كريم اكرم من الله .. فقه الاعرابي ». وليس من شك ان قول النبي وعلي واحد فما هو وجه الجمع ؟.

الجواب :

ان الامام (ع) يشير بقوله هذا الى معنى جليل وعميق ، وهو أن الثقة بالله شرط اساسي لصدق الايمان به والاخلاص له ، ومن اقواله في ذلك : « لا يصدق ايمان عبد حتى يكون بما في يد الله اوثق منه بما في يده ؟ » . ولكن الامام (ع) يحدد هذه الثقة بان تكون تصرفات العبد بكاملها لله وحده ، فلا يرجو ثواباً على فعل او ترك الا ثواب الله ، ولا يخاف عقاباً على شيء

الا عقاب الله على ان يكون رجاء الثواب على الحسنة تماماً على
قدر الخوف من العقاب على السيئة لو وزنا معاًلم ترجح كفة
احدهما على كفة الآخر.. وبتعبير ثانٍ ان الثقة تجمع بين الرجاء
والرغبة في رحمة الله الواسعة ، وبين الخوف والرهبة من عدله
الصارم . ومعنى هذا أن موضوع الخوف غير موضوع الرجاء ،
وان هذين الضدين لم يجتمعا في موضوع واحد كي يُسأل
ويقال : كيف جمع الامام بينهما ؟ .

وما قرأت كلمة دفعت بي الى العمل لوجه الله والاخلاص
له ، وملأت قلبي ثقة به وبرحمته – مثل هذه العظة البالغة للامام
زين العابدين (ع) حين يقول : « لو قدر الله انه معذبي لا محالة
ما ازددت الا اجتهاداً لئلا أرجع على نفسي بالملامة ». ومعنى
هذا ان الله سبحانه لو قال للامام : وعزتي وجلالي لاعذبنك
عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين – لكان هذا أقوى البواعث في
نفس الامام على الاخلاص لله والتعبد له خوفاً من الاهمال
والتقصير اذا هو ترك العمل والاجتهاد لمجرد التهديد والوعيد
بالعذاب .

وبعد ، فهل حُدّثت أو مر بخيالك مثل هذا العلم بالله ،
والثقة برحمته ، واليقين بعظمته ؟ . وهل في القديم والجديد
اسلوب في الدعاية والاعلام يضارع هذا الاسلوب في جذبه
وتأثيره ؟ . وأنصح كل من يؤمن بالله أن يلح عليه ويُلحف
بالسؤال من فضله، فانه تعالى ليس كأحدنا يضيق بالسائلين

والملحفين .. وفي اصول الكافي عن الامام الصادق (ع) : ان
الله عز وجل كره الحاج الناس بعضهم على بعض في المسألة ،
وأحب ذلك لنفسه .

قصة الشامي مع الامام :

حارب رجل شامي مع الامام (ع) في صفين ، وبعد منصرفه
منها سأل الشامي الامام : هل كان مسيرنا الى حرب صفين
بقضاء الله وقدره ؟ . فقال له الامام : ما وطأنا موطئاً ، ولا
هبطنا وادياً الا بقضاء الله وقدره . فقال الشامي عند الله احتسب
عناي .. م ارى لي أجراً . فقال له الامام : مه ، لقد عظم الله
أجركم في مسيركم ومنصرفكم. فقال الشامي : كيف وقد
ساقنا القضاء والقدر؟ فأجابه الامام بما معناه : ما اردت القضاء
اللازم ، والقدر الحتم الذي يكون الانسان معه مسيراً لا مخيراً ،
ويستحيل أن اقصد ذلك وأريده ، لأن الانسان مخير غير مسير
والا امتنع التكليف ، وسقط الحساب والعقاب .

وفي هذا الجواب حلقة مفقودة ، وهي سكوت الامام عما
أراد من القضاء والقدر في جوابه الاول للشامي ، وهو يقول
له : « ما وطئنا موطئاً الا بقضاء الله وقدره» . وقد تركت هذه
الحلقة المفقودة الكثير من قراء النهج في حيرة ، والبعض منهم
خلط بين مسألة القضاء والقدر ، ومسألة الجبر والاختيار ، وظن
ان الامام يتكلم عن معنى القضاء والقدر في قوله للشامي :
« لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حاتماً ، ولو كان كذلك

لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، ان الله سبحانه أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً » مع ان هذا الكلام خاص بالجبر والاختيار لا في القضاء والقدر .. وفيما يلي البيان :

القضاء والقدر :

لكلمة القضاء معانٍ عديدة ، منها اللزوم والحتم الذي هو تعبير ثانٍ عن الجبر وعدم الاختيار .. ومنها علم الله سبحانه بالطريق الذي سوف يسلكه العبد في جميع افعاله الاختيارية خيراً كانت ام شراً .

وايضاً لكلمة القدر معان عديدة ، منها اللزوم والحتم كالمعنى الأول للقضاء ، ومنها إيجاده سبحانه وتعالى للمسببات عند وجود اسبابها ارادية كانت ام قهرية .

وحين قال الإمام : « ما وطئنا موطئاً ، ولا هبطنا وادياً الا بقضاء الله وقدره » فهم الشامي من كلمة القضاء وكلمة القدر معنى واحداً ، وهو اللزوم والحتم ، ولذا قال : ما أرى لي اجراً ، فزجره الامام ، ونفى أن يكون اراد هذا المعنى ، وقال : « ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حاتماً » . واكتفى الامام بهذا النفي دون أن يبين المعنى الذي أراده من القضاء والقدر ، وانتقل الى مسألة ثانية ، وهي مسألة الجبر والاختيار .

ومهما يكن فان الامام (ع) أراد من القضاء والقدر المعنى الذي ينسجم مع اختيار العبد في افعاله ، ولا يناقض صحة

التكليف ، وجواز الثواب والعقاب كما يدل عليه ظاهر كلامه . والمعنى الذي يتفق وينسجم مع حرية العبد، ويريده الامام هو أن نفسر القضاء هنا بعلم الله أن العبد سيفعل كيت وكيت بارادته واختياره ، ونفسر القدر بان الله يوجد الافعال عند وجود اسبابها ، ومن جملة اسبابها ارادة العبد وقدرته ، والله عليم بذلك وغيره .

مشكلة الجبر والاختيار :

تكلمنا عن هذه المشكلة في التفسير الكاشف ، وفي ظلال نهج البلاغة ، ومعالم الفلسفة وغير ذلك مما كتبنا ونشرنا ، واطلنا الشرح والكلام عنها وعن مسألة القضاء والقدر ، والخير والشر ، والهدى والضلال في كتاب فلسفة التوحيد والولاية ونشير هنا الى مذهب اهل البيت في حرية الانسان ، وخلاصته بايجاز شديد أن الله سبحانه وهب الانسان القدرة على معرفته والإيمان بوجوده ، وعلى التمييز بين الخير والشر ، وهذه القدرة موجودة في عقل الانسان .. وايضاً وهب سبحانه الانسان القدرة في بدنه على الكدح والعمل مخيراً لا مسيراً .

وقال السنة أوجلهم : ان القدرة موجودة في الانسان ، ما في ذلك ريب ، ولكنها معطلة ومشلولة لا يستند اليها فعل ولا ترك ، ووجودها فيه تماماً كوجود الشعر على بدنه ، والفاعل لكل ما يصدر عن الانسان هو الله وحده، وليس الانسان الا مجرد ظرف ووعاء للفعل الذي يخيل الينا انه صادر عنه .. ويسمى

اهل هذا المذهب الجبرية .

وقال آخرون : ان الله سبحانه وهب الانسان هذه القدرة على ان تكون ملكاً مطلقاً له لا يعارضه فيها احد حتّى الله تبارك وتعالى، لانه نقلها من سلطانه القاهر الى سلطان الانسان تماماً كما تنتقل ملكية المتاع من البائع الى المشتّري ، ومن المورث الى الوارث ، غاية الأمر أنه عز وجل أمر العبد ان يستعمل قدرته في الخير لا في الشر، وترك له الخيار ، إن شاء أطاع ، وإن شاء عصى .. ويسمى أهل هذا المذهب المفوضية ، اي ان الله فوض أمر القدرة لعباده، وقطع كل علاقة بينه وبينها، كما يزعمون .

وقال أهل البيت : كلا « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين أمرين » . والمراد بلا جبر هنا أن افعال الانسان تستند الى قدرته مباشرة . والمراد بلا تفويض ان سلطان الله على قدرة الانسان قائماً بالفعل وانها تماماً كالعارية ينتفع بها المستعير ، وهي على ملك صاحبها المعير ، لأن العبد وما ملكت يداه في قبضة مولاه . هذا هو الامر بين الأمرين، أي أن الانسان يؤمن ويعلم بطاقته القلبية والعقلية، ويكدح ويعمل بقدرته الجسمية ، ويتّرك ويفعل بارادته الشخصية ، وفي الوقت نفسه كل ؤلاء من الله ، ولكنه تعالى أذن لعبده ان يتصرف بها في حدود حلاله وحرامه ، فان أطاع فله جزاء من أحسن عملاً ، وان شق العصا فان الله شديد العقاب .